۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي
قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا
فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾
قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ
يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾
وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا
خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ
وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ
قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

(قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾

فقال له الخضر معاتبا و مُذَكِّرا فـــ(قَالَ)له موسى:-(إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا)بعد هذه المرة

(فَلَا تُصَاحِبْنِي)أى: فأنت معذور بذلك و بترك صحبتى

(قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا)أى: أعذرت منى و لم تقصر.

*أبي داود 3984 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَعَا بَدَأَ بِنَفْسِهِ وَ قَالَ:- رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى مُوسَى لَوْ صَبَرَ لَرَأَى مِنْ صَاحِبِهِ الْعَجَبَ وَ لَكِنَّهُ قَالَ:-

{إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي} [الكهف: 76] "طَوَّلَهَا حَمْزَةُ( )76

(فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا)فطلبا منهم طعامًا على سبيل الضيافة

*مسلم2380-قال النبي ﷺ:-فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَامًا فَطَافَا فِي الْمَجَالِسِ فَاسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا

(فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا)فلم يضيفوهما (البخل سببه خدش فى المعتقد)

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ)أى: قد عاب و استهدم وَ الِانْقِضَاضُ هُوَ: السُّقُوطُ.

[حكم الألباني] : صحيح ق دون قوله "و لكنه"

(فَأَقَامَهُۥ)الخضر أي: بناه و أعاده جديدا.

فـ(قَالَ)له موسى:-(لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا)تصرفه فى تحصيل طعامنا حيث لم يضيفونا

أى: أهل هذه القرية لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم و أنت تبنيه من دون أجرة و أنت تقدر عليها؟.

*فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال و استعذر الخضر منه 77

فـ(قَالَ)له:-(هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ)

فإنك شرطت ذلك على نفسك فلم يبق الآن عذر و لا موضع للصحبة

*لِأَنَّكَ شَرَطْتَ عِنْدَ قَتْلِ الْغُلَامِ أَنَّكَ إِنْ سَأَلْتَنِى عَنْ شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِى فَهُوَ فِرَاقُ بَيْنِى وَ بَيْنَكَ

(سَأُنَبِّئُكَ)سأخبرك(بِتَأۡوِيلِ)بتفسير(مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا)أى:-بما أنكرت عليَّ

و أنبئك بما لى فى ذلك من المآرب و ما يئول إليه الأمر78

(أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ)التى خرقتها(فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ)يقتضى ذلك الرقة عليهم و الرأفة بهم.

(فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا)

أى: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غَصَبَها و أخذها ظلما

فأردت أن أخرقها ليكون فيها عيب فتسلم من ذلك الظالم79

(وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ)الذى قتلته

(فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا)

و كان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرهق أبويه طغيانا و كفرا أى:-

لحملهما على الطغيان و الكفر:-

1-إما لأجل محبتهما إياه

2-أو للحاجة إليه

3-أو يحدهما على ذلك

أي: فقتلته لاطلاعى على ذلك سلامة لدين أبويه المؤمنين و أى فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟!!

و هو و إن كان فيه إساءة إليهما و قطع لذريتهما فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه

*مسلم (2661)عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا وَ لَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا»

*قَالَ قَتَادَةُ: قَدْ فَرِحَ بِهِ أَبَوَاهُ حِينَ وُلِدَ وَ حَزِنَا عَلَيْهِ حِينَ قُتِلَ وَ لَوْ بَقِىَ كَانَ فِيهِ هَلَاكُهُمَا

فَلْيَرْضَ امْرُؤٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ فَإِنَّ قَضَاءَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ فِيمَا يَكْرَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ قَضَائِهِ فِيمَا يُحِبُّ80

*أحمد 20283 -عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِى اللهُ لَهُ شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ "وَ قَالَ{وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ}[البَقَرَة:216]

و لهذا قال:(فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ)أى: ولدا صالحا زكيا81

(وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا)واصلا لرحمه

فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملهما على الكفر و الطغيان.

(وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ)الذى أقمته

(فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا)

أى: حالهما تقتضى الرأفة بهما و رحمتهما لكونهما صغيرين عُدِما أباهما و حفظهما الله أيضا بصلاح والدهما.
*فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يُحْفَظُ فى ذريته و تشمل بركة عِبَادَتِه لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ:-
1-شَفَاعَتِهِ فِيهِمْ
2-وَ رَفْعِ دَرَجَتِهِمْ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لِتَقَرَّ عَيْنُهُ بِهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِهِ
*قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:-حُفِظَا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا وَ لَمْ يُذْكَرْ لَهُمَا صَلَاحٌ

(فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا)

أي: فلهذا هدمت الجدار و استخرجت ما تحته من كنزهما و أعدته مجانا.
*هَاهُنَا أَسْنَدَ الْإِرَادَةَ إِلَى اللهِ تَعَالَى لِأَنَّ بُلُوغَهُمَا الْحُلُمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ وَ قَالَ فِي الْغُلَامِ:-
{فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ} وَ قَالَ فِي السَّفِينَةِ:{فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا}فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

هذا الذى فعلته(رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ) آتاها الله عبده الخضر

*البخارى 3402 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-
«إِنَّمَا سُمِّيَ الخَضِرَ أَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ(قشرة وجه الأرض)بَيْضَاءَ(يابسة ليس فيها نبت)
فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ(لما نبت فيها من عشب أخضر)»
*قال بن كثير في تعليقه على الحديث:-
وَ الْمُرَادُ بِالْفَرْوَةِ هَاهُنَا الْحَشِيشُ الْيَابِسُ وَ هُوَ الْهَشِيمُ مِنَ النَّبَاتِ و قِيلَ:الْمُرَادُ بِذَلِكَ وَجْهُ الْأَرْضِ.

(وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ)أى: أتيت شيئا من قبل نفسى و مجرد إرادتى و إنما ذلك من رحمة الله و أمره.

(ذَٰلِكَ)الذى فسرته لك(تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا)
*هَذَا تَفْسِيرُ مَا ضِقْتَ بِهِ ذَرْعًا وَ لَمْ تَصْبِرْ حَتَّى أُخْبِرَكَ بِهِ ابْتِدَاءً وَ لَمَّا أَنْ فَسَّرَهُ لَهُ وَ بَيَّنَهُ وَ وَضَّحَهُ وَ أَزَالَ الْمُشْكَلَ قَالَ:-{مَا لَمْ تَسْطِعْ}
*وَ قَبْلَ ذَلِكَ كَانَ الْإِشْكَالُ قَوِيًّا ثَقِيلًا فَقَالَ:-{سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} فَقَابَلَ الْأَثْقَلَ بِالْأَثْقَلِ وَ الْأَخَفَّ بِالْأَخَفِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ}وَ هُوَ الصُّعُودُ إِلَى أَعْلَاهُ
{وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا} [الكَهْف:97] وَ هُوَ أَشَقُّ مِنْ ذَلِكَ فَقَابَلَ كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ لَفْظًا وَ مَعْنَى وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

و في هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد و الأحكام و القواعد شيء كثير ننبه على بعضه بعون الله:–

1–فضيلة العلم و الرحلة في طلبه و أنه أهم الأمور فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة و لقى النصب فى طلبه و ترك القعود عند بنى إسرائيل لتعليمهم و إرشادهم و اختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

2– البداءة بالأهم فالأهم فإن زيادة العلم و علم الإنسان أهم من ترك ذلك و الاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم و الجمع بين الأمرين أكمل.

3–جواز أخذ الخادم فى الحضر و السفر لكفاية المؤن و طلب الراحة كما فعل موسى.

4–أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه و أين يريده فإنه أكمل من كتمه فإن فى إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته و إتيان الأمر على بصيرة و إظهارًا لشرف هذه العبادة الجليلة كما قال موسى:(لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)

و كما أخبر النبى ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه مع أن عادته التورية و ذلك تبع للمصلحة.

5–إضافة الشر و أسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل و التزيين

و إن كان الكل بقضاء الله و قدره لقول فتى موسى:–(وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ)

6–جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس من نصب أو جوع أو عطش إذا لم يكن على وجه التسخط و كان صدقا لقول موسى:(لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا)

7–استحباب كون خادم الإنسان ذكيا فطنا كيسا ليتم له أمره الذي يريده.

8–استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله و أكلهما جميعا لأن ظاهر قوله:–(آتِنَا غَدَاءَنَا) إضافة إلى الجميع أنه أكل هو و هو جميعا.

9–أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به و أن الموافق لأمر الله يعان ما لا يعان غيره لقوله:–(لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا)و الإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين

و أما الأول فلم يشتك منه التعب مع طوله لأنه هو السفر على الحقيقة.

و أما الأخير فالظاهر أنه بعض يوم لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة

فالظاهر أنهم باتوا عندها ثم ساروا من الغد حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه(آتِنَا غَدَاءَنَا)

فحينئذ تذكر أنه نسيه فى الموضع الذي إليه منتهى قصده.

10–أن ذلك العبد الذي لقياه ليس نبيا بل عبدا صالحا لأنه وصفه بالعبودية و ذكر منة الله عليه بالرحمة و العلم و لم يذكر رسالته و لا نبوته و لو كان نبيا لذكر ذلك كما ذكره غيره

و أما قوله فى آخر القصة:–(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)فإنه لا يدل على أنه نبى و إنما يدل على الإلهام و التحديث كما يكون لغير الأنبياءكما قال(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)و قوله(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا)

11–أن العلم الذى يعلمه الله لعباده نوعان:–

1–علم مكتسب يدركه العبد بجده و اجتهاده.

2–و نوع علم لدنى يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله(وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)

12–التأدب مع المعلم و خطاب المتعلم إياه ألطف خطاب لقول موسى عليه السلام:-

(هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)فأخرج الكلام بصورة الملاطفة و المشاورة و أنك هل تأذن لي في ذلك أم لا و إقراره بأنه يتعلم منه بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر الذي لا يظهر للمعلم افتقارهم إلى علمه بل يدعى أنه يتعاون هم و إياه بل ربما ظن أنه يعلم معلمه و هو جاهل جدا فالذل للمعلم و إظهار الحاجة إلى تعليمه من أنفع شيء للمتعلم.

13–تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه فإن موسى–بلا شك–أفضل من الخضر.

14–تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه ممن مهر فيه و إن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة.

فإن موسى عليه السلام من أولى العزم من المرسلين الذين منحهم الله و أعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم و لكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده فلهذا حرص على التعلم منه.

فعلى هذا لا ينبغي للفقيه المحدث إذا كان قاصرا في علم النحو أو الصرف أو نحوه من العلوم أن لا يتعلمه ممن مهر فيه و إن لم يكن محدثا و لا فقيها.

15–إضافة العلم و غيره من الفضائل لله تعالى و الإقرار بذلك و شكر الله عليها لقوله:(تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ)أي:–مما علمك الله تعالى.

16–أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير فكل علم يكون فيه رشد و هداية لطرق الخير و تحذير عن طريق الشر أو وسيلة لذلك فإنه من العلم النافع و ما سوى ذلك

فإما أن يكون ضارا أو ليس فيه فائدة لقوله: (أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)

17–أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم و العلم و حسن الثبات على ذلك أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم فمن لا صبر له لا يدرك العلم

و من استعمل الصبر و لازمه أدرك به كل أمر سعى فيه لقول الخضر–يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى في الأخذ عنه–إنه لا يصبر معه.

18–أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علما و خبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه و إلا فالذي لا يدريه أو لا يدرى غايته و لا نتيجته و لا فائدته و ثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله:–

(وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)فجعل الموجب لعدم صبره و عدم إحاطته خبرا بالأمر.

19–الأمر بالتأني و التثبت و عدم المبادرة إلى الحكم على الشيء حتى يعرف ما يراد منه و ما هو المقصود.

20–تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة و أن لا يقول الإنسان للشيء:–

إنى فاعل ذلك في المستقبل إلا أن يقول(إِنْ شَاءَ اللَّهُ)

21-أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله فإن موسى قال:-(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا)
فوطن نفسه على الصبر و لم يفعل.

22-أن المعلم إذا رأى المصلحة فى إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها فإن المصلحة تتبع كما إذا كان فهمه قاصرا
أو نهاه عن الدقيق فى سؤال الأشياء التى غيرها أهم منها أو لا يدركها ذهنه أو يسأل سؤالا لا يتعلق فى موضع البحث.

23-جواز ركوب البحر فى غير الحالة التي يخاف منها.

24-أن الناسى غير مؤاخذ بنسيانه لا في حق الله و لا فى حقوق العباد لقوله:-(لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ)

23-أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس و معاملاتهم العفو منها و ما سمحت به أنفسهم
و لا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون أو يشق عليهم و يرهقهم فإن هذا مدعاة إلى النفور منه و السآمة بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

24-أن الأمور تجرى أحكامها على ظاهرها و تعلق بها الأحكام الدنيوية فى الأموال و الدماء و غيرها
فإن موسى ﷺ أنكر على الخضر خرقه السفينة و قتل الغلام و أن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر
و موسى ﷺلا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التى صحب عليها الخضر
فاستعجل ﷺو بادر إلى الحكم في حالتها العامة و لم يلتفت إلى هذا العارض الذى يوجب عليه الصبر
و عدم المبادرة إلى الإنكار.

25-القاعدة الكبيرة الجليلة و هو أنه« يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير »
و يراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما

*فإن قتل الغلام شر و لكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شرا منه

*و بقاء الغلام من دون قتل و عصمته و إن كان يظن أنه خير فالخير ببقاء دين أبويه و إيمانهما خير من ذلك
فلذلك قتله الخضر و تحت هذه القاعدة من الفروع و الفوائد ما لا يدخل تحت الحصر
فتزاحم المصالح و المفاسد كلها داخل في هذا.

26-القاعدة الكبيرة أيضا و هى أن:-«عمل الإنسان في مال غيرهإذا كان على وجه المصلحة و إزالة المفسدة أنه يجوز و لو بلا إذن حتى و لو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير »
كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم.
فعلى هذا لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما فى دار إنسان أو ماله و كان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقى جاز للإنسان بل شرع له ذلك حفظا لمال الغير و كذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير

و دفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقى جاز ولو من غير إذن.

27–أن العمل يجوز فى البحر كما يجوز في البر لقوله:(يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ)و لم ينكر عليهم عملهم.

28–أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته و لا يخرج بذلك عن اسم المسكنة لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

28–أن القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام(لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)

29–أن القتل قصاصا غير منكر لقوله بِغَيْرِ نَفْسٍ

30–أن العبد الصالح يحفظه الله فى نفسه وفي ذريته.

31–أن خدمة الصالحين أو من يتعلق بهم أفضل من غيرها لأنه علل استخراج كنزهما و إقامة جدارهما أن أباهما صالح.

32–استعمال الأدب مع الله تعالى فى الألفاظ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا)و أما الخير فأضافه إلى الله تعالى لقوله:–(فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) كما قال إبراهيم ﷺ (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)و قالت الجن:–

(وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) مع أن الكل بقضاء الله و قدره.

33–أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال و يترك صحبته حتى يعتبه و يعذر منه كما فعل الخضر مع موسى.

34–أن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة و سبب لبقاء الصحبة و تأكدها كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

35–أن هذه القضايا التى أجراها الخضر هى قدر محض أجراها الله و جعلها على يد هذا العبد الصالح ليستدل العباد بذلك على ألطافه فى أقضيته و أنه يقدر على العبد أمورا يكرهها جدا و هى صلاح دينه كما فى قضية الغلام أو و هى صلاح دنياه كما فى قضية السفينة فأراهم نموذجا من لطفه و كرمه ليعرفوا و يرضوا غاية الرضا بأقداره المكروهة82

قصة ذى القرنين 83-99

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ)

كان أهل الكتاب أو المشركون سألوا رسول الله ﷺعن قصة ذى القرنين

*وَ قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: كَانَ مَلِكًا وَ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ:-لِأَنَّهُ مَلِكَ الرُّومَ وَ فَارِسَ.

*و يقال :-إِنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَ الْمَغَارِبَ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّمْسِ وَ يَغْرُبُ.

فأمره الله أن يقول:(قُلْ)يا محمد:–(سَأَتْلُوا)سأقص

(عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا)من أحواله ما يتذكر فيه و يكون عبرة

و أما ما سوى ذلك من أحواله فلم يتله عليهم ففيه نبأ مفيد و خطاب عجيب ٨٣

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ
وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾
قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا
فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ
وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾
ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾
قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾
قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾
فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ)أى:ملكه الله تعالى و مكنه من النفوذ في أقطار الأرض و انقيادهم له

(وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا)يَسَّرَ اللَّهُ لَهُ الْأَسْبَابَ أَيْ:-
الطُّرُقَ وَ الْوَسَائِلَ إِلَى فَتْحِ الْأَقَالِيمِ و الرَّسَاتِيق وَ الْبِلَادِ وَ الْأَرَاضِي وَ كَسْرِ الْأَعْدَاءِ وَ كَبْتِ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَ إِذْلَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ. قَدْ أُوتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ سَبَبًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.
*أى:أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه ما به يستعين على قهر البلدان و سهولة الوصول إلى أقاصى العمران﴿٨٤﴾

(فَأَتۡبَعَ سَبَبًا)مُنْزِلًا وَ طَرِيقًا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ_عِلْمًا.
*و عمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها أى:استعملها على وجهها فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه و لا كل أحد يكون قادرا على السبب فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقى و العمل به حصل المقصود و إن عدما أو أحدهما لم يحصل.
و هذه الأسباب التي أعطاه الله إياها لم يخبرنا الله و لا رسوله بها و لم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم فلهذا: لا يسعنا غير السكوت عنها و عدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات و نحوها
و لكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة داخلية و خارجية بها صار له جند عظيم ذو عدد و عدد و نظام و به تمكن من قهر الأعداء و من تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض و مغاربها و أنحائها﴿٨٥﴾

(حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ)فأعطاه الله ما بلغ به مغرب الشمس حتى رأى الشمس فى مرأى العين

(وَجَدَهَا تَغۡرُبُ)كأنها تغرب(فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ)أى:–سوداء

و هذا هو المعتاد لمن كان بينه و بين أفق الشمس الغربى ماء رآها تغرب فى نفس الماء و إن كانت فى غاية الارتفاع وَ الْحَمِئَةُ مُشْتَقَّةٌ عَلَى إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ مِنْ "الْحَمْأَةِ" وَ هُوَ الطِّينُ كَمَا قَالَ:-

{إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ[الْحِجْر: 28]أَيْ:- طِينٍ أَمْلَسَ تَغِيبُ فِي طِينَةٍ سَوْدَاءَ

(وَوَجَدَ عِندَهَا)أى: عند مغربها (قَوۡمٗاۗ)أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ ذَكَرُوا أَنَّهَا كَانَتْ أُمَّةً عَظِيمَةً مِنْ بنِي آدم.

(قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ)أى: إما أن تعذبهم بقتل أو ضرب أو أسر و نحوه

(وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا)و إما أن تحسن إليهم فخير بين الأمرين

لأن الظاهر أنهم كفار أو فساق أو فيهم شيء من ذلك لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق لم يرخص فى تعذيبهم فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدح و الثناء لتوفيق الله له لذلك ﴿٨٦﴾

فـ (قَالَ)سأجعلهم قسمين:–(أَمَّا مَن ظَلَمَ)بالكفر

(فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا)أى: تحصل له العقوبتان:–

1–عقوبة الدنيا 2–و عقوبة الآخرة ﴿٨٧﴾

(وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ)أى: فله الجنة و الحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة

(وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا)أى: و سنحسن إليه و نلطف له بالقول و نيسر له المعاملة

و هذا يدل على كونه من الملوك الصالحين الأولياء العادلين العالمين حيث وافق مرضاة الله فى معاملة كل أحد بما يليق بحاله﴿٨٨﴾

(ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ)

أي لما وصل إلى مغرب الشمس كر راجعا قاصدا مطلعها متبعا للأسباب التى أعطاه الله فوصل إلى مطلع الشمس

فــ(وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ)أمة(لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا)ليس لهم ستر من الشمس

*إما لعدم استعدادهم فى المساكن و ذلك لزيادة همجيتهم و توحشهم و عدم تمدنهم

*و إما لكون الشمس دائمة عندهم لا تغرب عنهم غروبا يذكر كما يوجد ذلك فى شرقى أفريقيا الجنوبى فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض فضلا عن وصولهم إليه إياه بأبدانهم و مع هذا فكل هذا بتقدير الله له و علمه به ﴿٩٠﴾

و لهذا قال(كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ)عنده(خُبْرًا)من الخير و الأسباب العظيمة و علمنا معه حيثما توجه و سار
*نَحْنُ مُطَّلِعُونَ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَ أَحْوَالِ جَيْشِهِلَا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْهَا شَيْءٌ وَ إِنْ تَفَرَّقَتْ أُمَمُهُمْ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ فَإِنَّهُ تَعَالَى:{لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[آل عمران: 5]﴿٩١﴾

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ)وصل إلى ما(بَيْنَ السَّدَّيْنِ)الجبلين الحاجزين لما وراءهما

قال المفسرون: ذهب متوجها من المشرق قاصدا للشمال فوصل إلى ما بين السدين و هما سدان كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان سدا بين يأجوج و مأجوج و بين الناس

*البخاري6530 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَ سَعْدَيْكَ وَ الخَيْرُ فِي يَدَيْكَ قَالَ:يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ
قَالَ:وَ مَا بَعْثُ النَّارِ؟قَالَ:مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَ تِسْعَةً وَ تِسْعِينَ فَذَاكَ حِينَ(أى من شأنه أن يشيب الصغير لو وجد وتضع الحامل لو كانت)يَشِيبُ الصَّغِيرُ (وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سَكْرَىٰ وَمَا هُمْ بِسَكْرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ
(وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف وقراءة حفص {سكارى} في الموضعين)
فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟
قَالَ: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ»ثُمَّ قَالَ:-
وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ»قَالَ: فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَ كَبَّرْنَا
ثُمَّ قَالَ:وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ
إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعَرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الحِمَارِ»
(الخط والرقمتان في الحمار هما الأثران اللذان في باطن عضديه و الغاية بيان قلة عدد المؤمنين بالنسبة إلى الكافرين وأنهم غاية في القلة)

(وَجَدَ مِن دُونِهِمَا)أي:– من دون السدين

(قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)لعجمة ألسنتهم و استعجام أذهانهم و قلوبهم

و قد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فقه به ألسنة أولئك القوم و فقههم و راجعهم و راجعوه فاشتكوا إليه ضرر يأجوج و مأجوج ﴿٩٣﴾

و هما أمتان عظيمتان من بنى آدم فقالوا:–

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)بالقتل و أخذ الأموال و غير ذلك.

(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا)جُعْلًا_أَجْرًا عَظِيمًا يَعْنِي أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا لَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَالًا يُعْطُونَهُ إِيَّاهُ

(عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

و دل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد و عرفوا اقتدار ذى القرنين عليه فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك و ذكروا له السبب الداعى

و هو:إفسادهم فى الأرض فلم يكن ذو القرنين ذا طمع و لا رغبة فى الدنيا و لا تاركا لإصلاح أحوال الرعية بل كان قصده الإصلاح فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة

و لم يأخذ منهم أجرة و شكر ربه على تمكينه و اقتداره ﴿٩٤﴾

*فـــ(قَالَ)ذُو الْقَرْنَيْنِ بِعِفَّةٍ وَ دِيَانَةٍ وَ صَلَاحٍ وَقَصْدٍ لِلْخَيْرِ:-

(مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ)أى:مما تبذلون لى و تعطونى و إنما أطلب منكم أن تعينونى بقوة منكم بأيديكم

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)مانعا من عبورهم عليكم﴿٩٥﴾

(ءَاتُونِي زُبَرَ)قطع(الْحَدِيدِ)فأعطوه ذلك.

(حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ)الجبلين اللذين بني بينهما السد

*وَضَعَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْأَسَاسِ حَتَّى إِذَا حَاذَى بِهِ رُءُوسَ الْجَبَلَيْنِ طُولًا وَ عَرْضًا.

(قَالَ انفُخُوا)أوقدوا النار إيقادا عظيما و استعملوا لها المنافيخ لتشتد فتذيب النحاس

(حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا)فلما ذاب النحاس الذى يريد أن يلصقه بين زبر الحديد

(قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)نحاسا مذابا فأفرغ عليه القطر فاستحكم السد استحكاما هائلا

و امتنع به من وراءه من الناس من ضرر يأجوج و مأجوج.وَ يَسْتَشْهِدُ بِقَوْلِهِ{وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} [سَبَإ: 12] ﴿٩٦﴾

(فَمَا اسْطَاعُوا)فما لهم استطاعة و لا قدرة(أَن يَظْهَرُوهُ)يصعدوا عليه لارتفاعه و ملاسته

(وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُۥ نَقْبًا)و لا على نقبه لإحكامه و قوته.

*وَ لَمَّا كَانَ الظُّهُورُ عَلَيْهِ أَسْهَلَ مِنْ نَقْبِهِ قَابَلَ كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ فَقَالَ:{فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}
وَ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى نَقْبِهِ وَ لَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ.

*البخارى7135 عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺدَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا فَزِعًا يَقُولُ:
«لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ
وَ حَلَّقَ بِإِصْبَعَيْهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا»قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ:- فَقُلْتُ:-
يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَنَهْلِكُ وَ فِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخُبْثُ»

*البخارى 7136-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

«يُفْتَحُ الرَّدْمُ رَدْمُ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَ عَقَدَ وُ هَيْبٌ تِسْعِينَ»﴿٩٧﴾

الاعجاز العلمى:-أمر ذى القرنين بأن يأتوه بقطع الحديد الضخمة فآتوه إياها فأخذ يقوم بأبناء شيئا فشيئا
حتى جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في العلو ثم قال للذين يبنون :-
انفخوا بالكير فى القطع الحديدية الموضوعة بين الصدفين
فلما تم ذلك وصارت النار عظيمة قال للعمال للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة و غيرها:-
آتونى القطر و هو النحاس المذاب أفرغه عليه فيصير مضاعف القوة والصلابة
و ه ى طريقة استخدمت حديثاً فى تقوية الحديد فوجدوا حديثا ان إضافة النحاس أو القطر إلى الحديد
يضاعف من قوة السبائك

شوّقهم تدبرُ القرآن إلى علم النحو والبلاغة!

كُلِّفْتُ بتدريس مادة النحو لبعض طلاب كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ووجدت في بداية التعليم نفورًا غريبًا من علم النحو، بل لاحظت ريبة وشكًّا في نفوس الطلاب تجاه مُعلمهم، فيسألون عن رأيي في القول بالمجاز، وإعراب بعض الحروف الزائدة في القرآن ونحو ذلك، وقد بلغَ الأمرُ غايته حينما دخلتُ إحدى القاعاتِ فوجدتُ طالبًا قد كتبَ على السبورةِ بيتَ الشعرِ المشهورِ الذي لا يُعرف قائله:

وَلَسْتُ بِنَحْوِيٍّ يَلُوكُ لِسَانَهُ وَلَكِنْ سَلِيْقِيٌّ يَقُولُ فَيُعْرِبُ

فأدركت أنني -هكذا- أَنْفُخُ في قِرْبَةٍ مشقوقة، ففكرت تفكيرًا عميقًا، وأيقنتُ أنه لا سبيل إلى إقناع هؤلاء الطلاب بأهمية علم النحو إلا بربطه بالقرآن الكريم، فقلت لهم يومًا: لديَّ سؤال، من أجاب عليه فله جائزة: لماذا قال

الله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾[1] ﴿ٱسْطَٰعُوٓاْ ﴾ و﴿ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾ ؟ فلم يعرف أحد منهم الجواب، فأعطيتهم مُهلة إلى المحاضرة التالية، ونقلت السؤال إلى القاعات الأخرى.

وفي المحاضرة التي بعدها سألتهم عن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾[2]، لماذا عَدّى الفعلَ ﴿يَرَوْاْ ﴾ بـ﴿إِلَى ﴾ ولم يقل: أو لم يروا الطير؟ ولماذا قال: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾؟.

وهكذا؛ كنا في بداية كل محاضرة نجيب عن سؤال المحاضرة السابقة، وفي نهايتها أُلقي عليهم سؤالا جديدًا!

وقد رأيت ثمرة هذا التدبر عليهم وعليَّ، أما الطلاب فقد أدركوا حاجتهم إلى علم النحو، حتى إن بعضهم صار يأتي إلى بيتي ليَدرس عليَّ علم النحو والصرف، وأما أثره عليَّ فقد اجتهدتُ في التنقيبِ عما أشار إليه العلماء والمفسرون من صور الإعجاز البياني، فاجتمعت لديَّ حصيلة طيبة منها قدمتها في برنامج إذاعي في إذاعة القرآن الكريم، ثم نشرتُها في كتاب بعنوان: نظرات لغوية في القرآن الكريم/ صالح بن حسين العايد.

ذو القرنين شخصية حيرت المفكرين أربعة عشر قرنا و كشف عنها - أبو الكلام أزاد

بقلم الدكتور عبد المنعم النمر رحمه الله وزير أوقاف سابق وكاتب إسلامى مصرى

ماذا قاله المفسرون و المؤرخون عن ذو القرنين ؟

يذكر تفسير الكشاف للزمخشرى :أنه الإسكندر و قيل أنه عبد صالح. نبى. ملك

و ذكر رواية عن الرسول ﷺأنه سمى ذا القرنين لأنه طاف قرنى الدنيا يعنى جانبيها شرقا و غربا.

و قيل كان لتاجه قرنان. كان على رأسه ما يشبه القرنين..

و الإمام ابن كثير : يذكر في تفسيره : أنه الإسكندر ثم يبطل هذا.

كان في زمن الخليل إبراهيم عليه السلامو طاف معه بالبيت. و قيل عبد صالح.

و أورد في تاريخه " البداية و النهاية " جـ2 ص 102 مثل ذلك و زاد أنه نبى أو مَلَك.

أما القرطبى في تفسيره فقد أورد أقوالا كثيرة أيضا :-كان من أهل مصر و اسمه " مرزبان "

و نقل عن ابن هشام أنه الاسكندر كما نقل روايات عن الرسول ﷺ بأنه ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب.

و عن عمر و عن على رضى الله عنهما بأنه مَلَك.. أو عبد صالح و هي روايات غير صحيحة.

و قيل أنه الصعب بن ذى يزن الحميرى و كلها روايات و أقوال تخمينية و لا سند لها.

أما الآلوسى في تفسيره فقد جمع الأقوال السابقة كلها تقريبا

و قال:لا يكاد يسلم فيها رأى ثم اختار أنه الاسكندر المقدونى و دافع عن رأيه بأن تلمذته لأرسطو لا تمنع من أنه كان عبدا صالحا.. أما المفسرون المحدثون فكانوا كذلك ينقلون عن الأقدمين.

موقف أبو الكلام آزاد من هذه الأقوال

لم يرتض أبو الكلام آزاد عالم الهند المعروف ترجم معانى القرآن إلى اللغة الأوردية قولا من هذه الأقوال بل ردها و قال عنها: إنها قامت على افتراض مخطىء لا يدعمه دليل

و عنى بالرد على من يقول بأنه الإسكندر المقدوني..بأنه لا يمكن أن يكون هو المقصود بالذكر فى القرآن إذ لا تعرف له فتوحات بالمغرب كما لم يعرف عنه أنه بنى سدا

ثم إنه ما كان مؤمنا بالله و لا شفيقا عادلا مع الشعوب المغلوبة و تاريخه مدون معروف.

كما عنى بالرد على من يقول بأنه عربي يمنى.. بأن سبب النزول هو سؤال اليهود للنبى ﷺعن ذى القرنين لتعجيزه و إحراجه.

و لو كان عربيا من اليمن لكان هناك احتمال قوي لدي اليهود-على الأقل-أن يكون عند قريش علم به و بالتالى عند النبى ﷺ فيصبح قصد اليهود تعجيز الرسول ﷺغير وارد و لا محتمل.

لكنهم كانوا متأكدين حين سألوه بأنه لم يصله خبر عنه و كانوا ينتظرون لذلك عجزه عن الرد.. سواء قلنا بأنهم وجهوا السؤال مباشرة أو أوعزوا به للمشركين في مكة ليوجهوه للرسول ﷺ.

ثم قال : " و الحاصل أن المفسرين لم يصلوا إلى نتيجة مقنعة في بحثهم عن ذى القرنين القدماء منهم لم يحاولوا التحقيق و المتأخرون حاولوه

و لكن كان نصيبهم الفشل. و لا عجب فالطريق الذى سلكوه كان طريقا خاطئا.

لقد صرحت الآثار بأن السؤال كان من قبل اليهود- وجهوه مباشرة أو أوعزوا لقريش بتوجيهه -فكان لائقا بالباحثين أن يرجعوا إلى أسفار اليهود و يبحثوا هل يوجد فيها شىء يلقى الضوء على شخصية ذي القرنين إنهم لو فعلوا ذلك لفازوا بالحقيقة."

لماذا ؟ لأن توجيه السؤال من اليهود للنبى ﷺ لإعجازه ينبىء عن أن لديهم في كتبهم و تاريخهم علما به مع تأكدهم بأن النبى ﷺ أو العرب لم يطلعوا علي ما جاء فى كتبهم..

فكان الاتجاه السليم هو البحث عن المصدر الذى أخذ منه اليهود علمهم بهذا الشخص..

و مصدرهم الأول هو التوراة.

و أمسك أزاد بالخيط

و هذا هو الذى اتجه إليه أزاد و أمسك بالخيط الدقيق الذي وصل به إلى الحقيقة..

و قرأ و بحث و وجد فى الأسفار و ما ذكر فيها من رؤى للأنبياء من بني إسرائيل و ما يشير إلى أصل التسمية : "ذي القرنين" أو " لوقرانائيم" كما جاء في التوراة..

و ما يشير كذلك إلى الملك الذى أطلقوا عليه هذه الكنية

و هو الملك "كورش" أو "خورس " كما ذكرت التوراة و تكتب أيضا "غورش" أو "قورش."

هل يمكن الاعتماد علي التوراة وحدها ؟

يقول أزاد : " خطر فى بالى لأول مرة هذا التفسير لذى القرنين فى القرآن

و أنا أطالع سفر دانيال ثم اطلعت علي ما كتبه مؤرخو اليونان فرجح عندى هذا الرأى و لكن شهادة أخرى خارج التوراة لم تكن قد قامت بعد إذ لم يوجد في كلام مؤرخى اليونان ما يلقى الضوء على هذا اللقب.

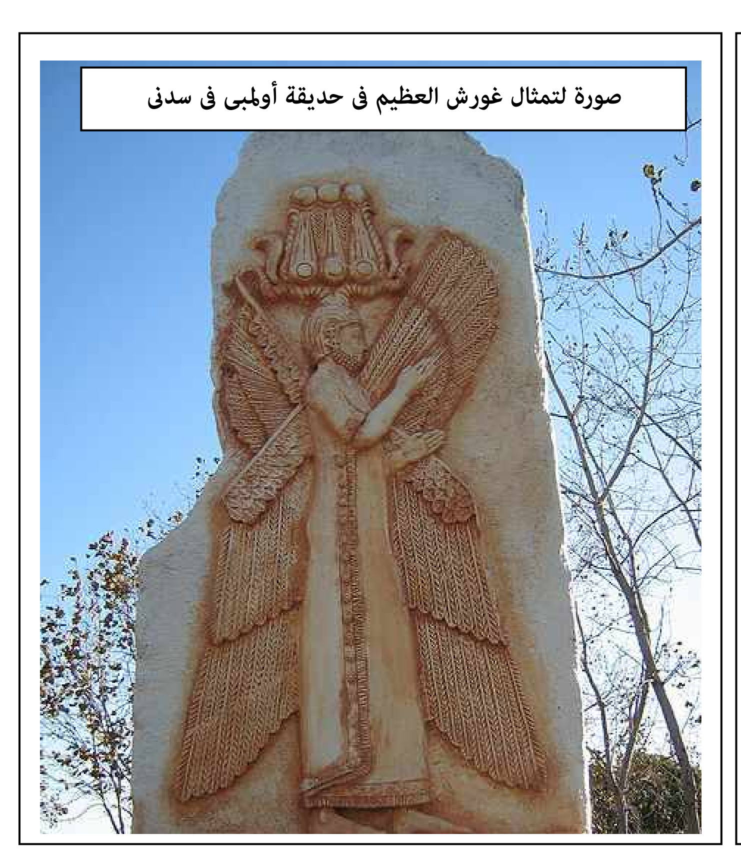
تمثال كورش ثم بعد سنوات لما تمكنت من مشاهدة آثار إيران القديمة و من مطالعة مؤلفات علماء الآثار فيها زال الحجاب إذ ظهر كشف أثرى قضى على سائر الشكوك فتقرر لدى بلا ريب أن المقصود بذي القرنين ليس إلا كورش نفسه فلا حاجة بعد ذلك أن نبحث عن شخص آخر غيره ". "

إنه تمثال علي القامة الإنسانية ظهر فيه كورش و على جانبيه جناحان كجناحى العقاب و على رأسه قرنان كقرني الكبش فهذا التمثال يثبت بلا شك أن تصور "ذى القرنين" كان قد تولد عند كورش

و لذلك نجد الملك في التمثال و على رأسه قرنان" أى أن التصور الذى خلقه أو أوجده اليهود للملك المنقذ لهم "كورش" كان قد شاع و عرف حتى لدى كورش نفسه على أنه الملك ذو القرنين..

أى ذو التاج المثبت على ما يشبه القرنين..


صورة لتمثال غورش العظيم فى حديقة أولمبى فى ايران


صورة لتمثال غورش العظيم فى حديقة أولمبى فى سدنى

كورش بين القرآن و التاريخ

و مع أن ما وصل إليه أزاد قد يعتبر لدى الباحثين كافيا إلا أنه مفسر للقرآن و عليه أن يعقد المقارنة بين ما وصل إليه و بين ما جاء به القرآن عن ذي القرنين أو عن الملك كورش..

إذ أن هذا يعتبر الفيصل في الموضوع لدي المفسر المؤمن بالقرآن..

و يقول أزاد : أنه لم توجد مصادر فارسية يمكن الاعتماد عليها فى هذا

و لكن الذي أسعفنا هو الكتب التاريخية اليونانية ولعل شهادتها تكون أوثق و أدعي للتصديق إذ أن المؤرخين اليونان من أمة كان بينها و بين الفرس عداء مستحكم و مستمر فإذا شهدوا لكورش فإن شهادتهم تكون شهادة حق لا رائحة فيها للتحيز و يستشهد أزاد في هذا المقام بقول الشاعر العربي:

و مليحة شـــهدت لها ضراتها .... و الفضل ما شهدت به الأعداء

فقد أجمعوا علي أنه كان ملكا عادلا كريما سمحا نبيلا مع أعدائه صعد إلي المقام الأعلى من الإنسانية معهم. و قد حدد أزاد الصفات التى ذكرها القرآن لذى القرنين و رجع لهذه المصادر اليونانية فوجدها متلاقية تماما مع القرآن الكريم و كان هذا دليلا قويا آخر على صحة ما وصل إليه من تحديد لشخصية ذى القرنين تحديدا لا يرقى إليه شك..

فمن كورش أو قورش إذا ؟

إنه من أسرة فارسية ظهر فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد فى وقت كانت فيه بلاده منقسمة إلي دويلتين تقعان تحت ضغط حكومتي بابل و آشور القويتين فاستطاع توحيد الدولتين الفارسيتين تحت حكمه ثم استطاع أن يضم إليها البلاد شرقا و غربا بفتوحاته التى أشار إليها القرآن الكريم و أسس أول إمبراطورية فارسية و حين هزم ملك بابل سنة 538 ق.م.

أتاح للأسري اليهود فيها الرجوع لبلادهم مزودين بعطفه و مساعدته و تكريمه.

كما أشرنا إلي ذلك من قبل.. و ظل حاكما فريدا فى شجاعته و عدله فى الشرق حتى توفى سنة 529 ق.م.

سد يأجوج و مأجوج

إنما نسميه بهذا لأنه بنى لمنع الإغارات التى كانت تقوم بها قبائل يأجوج و مأجوج من الشمال على الجنوب كما يسمى كذلك سد "ذى القرنين" لأنه هو الذي أقامه لهذا الغرض..

و يقول أزاد :-"لقد تضافرت الشواهد على أنهم لم يكونوا إلا قبائل همجية بدوية من السهول الشمالية الشرقية تدفقت سيولها من قبل العصر التاريخي إلى القرن التاسع الميلادى نحو البلاد الغربية و الجنوبية و قد سميت بأسماء مختلفة في عصور مختلفة و عرف قسم منها فى الزمن المتأخر باسم "ميغر" أو "ميكر" فى أوروبا.. و باسم التتار قي آسيا

و لاشك أن فرعا لهؤلاء القوم كانوا قد انتشروا علي سواحل البحر الأسود فى سنة 600 ق.م.

و أغار على آسيا الغربية نازلا من جبال القوقاز

و لنا أن نجزم بأن هؤلاء هم الذين شكت الشعوب الجبلية غاراتهم إلي "كورش" فبنى السد الحديدى لمنعها" و تسمى هذه البقعة الشمالية الشرقية(الموطن الأصلى لهؤلاء باسم"منغوليا "و قبائلها الرحالة "منغول" و تقول لنا المصادر اليونانية أن أصل منغول هو "منكوك" أو "منجوك"

و فى الحالتين تقرب الكلمة من النطق العبرى "ماكوك" و النطق اليونانى "ميكاك"

و يخبرنا التاريخ الصيني عن قبيلة أخرى من هذه البقعة كانت تعرف باسم "يواسى"

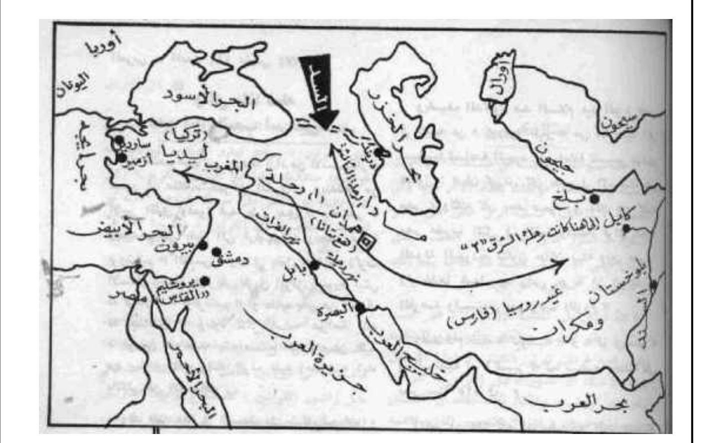
و الظاهر أن هذه الكلمة ما زالت تحرف حتى أصبحت يأجوج فى العبرية " ..

و يقول : " إن كلمتى : " يأجوج و مأجوج " تبدوان كأنهما عبريتان في أصلهما و لكنهما فى أصلهما

قد لا تكونان عبريتين إنهما أجنبيتان اتخذتا صورة العبرية فهما تنطقان باليونانية "كاك Gag" و "ماكوك Magog" و قد ذكرتا بهذا الشكل فى الترجمة السبعينية للتوراة
و راجتا بالشكل نفسه فى سائر اللغات الأوروبية ".
و الكلمتان تنطقان في القرآن الكريم بهمز و بدون همز.
و قد استطرد أزاد بعد ذلك لذكر الأدوار السبعة أو الموجات السبع التى قام بها هؤلاء بالإغارة على البلاد الغربية منها و الجنوبية.

مكان السد:

ثم يحدد مكان السد بأنه في البقعة الواقعة بين بحر الخرز "قزوين" و "البحر الأسود" حيث توجد سلسلة جبال القوقاز بينهما و تكاد تفصل بين الشمال و الجنوب إلا فى ممر كان يهبط منه المغيرون من الشمال للجنوب
و في هذا الممر بنى كورش سده كما فصله القرآن الكريم و تحدثت عنه كتب الآثار و التاريخ.
و يؤكد أزاد كلامه بأن الكتابات الأرمنية-و هى كشهادة محلية-تسمى هذا الجدار أو هذا السد من قديم باسم "بهاك غورائى" أو "كابان غورائى"
و معنى الكلمتين واحد و هو مضيق "غورش" أو "ممر غورش" و "غور" هو اسم "غورش أو كورش".
و يضيف أزاد فوق هذا شهادة أخرى لها أهميتها أيضا و هى شهادة لغة بلاد جورجيا التى هى القوقاز بعينها. فقد سمى هذا المضيق باللغة الجورجية من الدهور الغابرة باسم " الباب الحديدى."
و بهذا يكون أزاد قد حدد مكان السد و كشف المراد من يأجوج و مأجوج.
و قد تعرض لدفع ما قيل أن المراد بالسد هو سد الصين لعدم مطابقة مواصفات سد الصين لمواصفات سد ذي القرنين و لأن هذا بني سنة 264 ق.م.بينما بنى سد ذي القرنين فى القرن السادس قبل الميلاد.
كما تعرض للرد علي ما قيل بأن المراد بالسد هو جدار دربند أو باب الأبواب كما اشتهر عند العرب بأن جدار دربند بناه أنوشروان (من ملوك فارس من 531 - 579 م) بعد السد بألف سنة
و أن مواصفاته غير مواصفات سد ذي القرنين و هو ممتد من الجبل إلى الساحل ناحية الشرق و ليس بين جبلين كما أنه من الحجارة و لا أثر فيه للحديد و النحاس.



و على ذلك يكون المقصود بالعين الحمئة
هو الماء المائل للكدرة و العكارة و ليس صافيا.
و ذلك حين بلغ الشاطىء الغربي لآسيا الصغرى
و رأى الشمس تغرب فى بحر إيجه فى المنطقة
المحصورة بين سواحل تركيا الغربية شرقا و اليونان
غربا و هى كثيرة الجزر و الخلجان.
و المقصود بمطلع الشمس هو رحلته الثانية شرقا التى
وصل فيها إلي حدود باكستان و أفغانستان الآن
ليؤدب القبائل البدوية الجبلية التى كانت تغير على مملكته.
و المراد ببين السدين أي بين جبلين من جبال القوقاز التى تمتد من بحر الخزر(قزوين)إلى البحر الأسود حيث إتجه شمالا.
و لقد كان أزاد بهذا البحث النفيس أول من حل لنا هذه الإشكالات التى طال عليها الأم
و حيرت كل المفكرين قبله. و حقق لنا هذا الدليل من دلائل النبوة الكثيرة..رحمه الله و طيب ثراه

قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾

۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا

﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾

ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ

فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾

قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾

قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا

وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

*فلما فعل هذا الفعل الجميل و الأثر الجليل أضاف النعمة إلى موليها و (قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ)

أي: من فضله و إحسانه عليَّ و هذه حال الخلفاء الصالحين إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة ازداد شكرهم و إقرارهم و اعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام

*لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم قال:-(هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ)بخلاف أهل التجبر و التكبر و العلو في الأرض

فإن النعم الكبار تزيدهم أشرا و بطرا كما قال قارون–لما آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة– قال:(إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ)

(فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي)أي: لخروج يأجوج و مأجوج(جَعَلَهُۥ)أي: ذلك السد المحكم المتقن

(دَكَّآءَۖ)أي: دكه فانهدم و استوى هو و الأرض(وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا)كَائِنًا لَا مَحَالَةَ﴿٩٨﴾

(وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ)

يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج و مأجوج و أنهم إذا خرجوا على الناس–من كثرتهم و استيعابهم للأرض كلها– يموج بعضهم ببعضكما قال تعالى:–{حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ}[الأنبياء: 96]

*النَّاسَ يَوْمَئِذَ أَيْ: يَوْمَ يُدَكُّ هَذَا السَّدُّ وَ يَخْرُجُ هَؤُلَاءِ فَيَمُوجُونَ فِي النَّاسِ وَ يُفْسِدُونَ عَلَى النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ وَ يُتْلِفُونَ أَشْيَاءَهُمْ

و يحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة و أنهم يجتمعون فيه فيكثرون و يموج بعضهم ببعض من الأهوال و الزلازل العظام بدليل قوله:(وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)أى: إذا نفخ إسرافيل فى الصور أعاد الله الأرواح إلى الأجساد

(فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا)

ثم حشرهم و جمعهم لموقف القيامة الأولين منهم و الآخرين و الكافرين و المؤمنين ليسألوا و يحاسبوا و يجزون بأعمالهم فأما الكافرون–على اختلافهم– فإن جهنم جزاؤهم خالدين فيها أبدا.

*الترمذى2431 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«كَيْفَ أَنْعَمُ وَ صَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَ اسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ»

فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: " قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا "(٩٩)

التبشير و الانذار و اثبات الوحى 100-110

و لهذا قال:(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا)

عرضت لهم لتكون مأواهم و منزلهم و ليتمتعوا بأغلالها و سعيرها و حميمها و زمهريرها و ليذوقوا من العقاب ما تبكم له القلوب و تصم الآذان و هذا آثار أعمالهم و جزاء أفعالهم فإنهم فى الدنيا .

كما قال(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)

*مسلم(2842) عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(١٠٠)

(ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي)أى:معرضين عن الذكر الحكيم و القرآن الكريم و قالوا:–

(قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ)و فى أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة كما قال تعالى:–

(وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)كقوله{وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف: 36]

(وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)لا يقدرون على سمع آيات الله الموصلة إلى الإيمان لـ:–بغضهم القرآن و الرسول

فإن المبغض لا يستطيع أن يلقى سمعه إلى كلام من أبغضه

فإذا انحجبت عنهم طرق العلم و الخير فليس لهم سمع و لا بصر و لا عقل نافع فقد كفروا بالله و جحدوا آياته و كذبوا رسله فاستحقوا جهنم و ساءت مصيرا (١٠١)

(أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ)

و هذا برهان و بيان لبطلان دعوى المشركين الكافرين الذين اتخذوا بعض الأنبياء و الأولياء شركاء لله يعبدونهم و يزعمون أنهم يكونون لهم أولياء ينجونهم من عذاب الله و ينيلونهم ثوابه و هم قد كفروا بالله و برسله.

يقول الله لهم على وجه الاستفهام و الإنكار المتقرر بطلانه فى العقول:–

(أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ)لا يكون ذلك و لا يوالى ولى الله معاديا لله أبدا

فإن الأولياء موافقون لله في محبته و رضاه و سخطه و بغضه فيكون على هذا المعنى مشابها لقوله تعالى:–

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَقَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ)

فمن زعم أنه يتخذ ولى الله وليا له و هو معاد لله فهو كاذب

*و يحتمل–و هو الظاهر–أن المعنى أفحسب الكفار بالله المنابذون لرسله أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم و ينفعونهم من دون الله و يدفعون عنهم الأذى؟

هذا حسبان باطل و ظن فاسد فإن جميع المخلوقين ليس بيدهم من النفع و الضر شيء

و يكون هذا كقوله تعالى(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ) و نحو ذلك من الآيات التى يذكر الله فيها أن المتخذ من دونه وليا ينصره و يواليه ضال خائب الرجاء غير نائل لبعض مقصوده {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا}[مريم: 82]

(إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا)ضيافة و قرى فبئس النزل نزلهم و بئست جهنم ضيافتهم ١٠٢

(قُلۡ)يا محمد للناس–على وجه التحذير و الإنذار–:–(هَلۡ نُنَبِّئُكُم)أخبركم

(بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا)بأخسر الناس أعمالا على الإطلاق؟

*البخارى 4728 - عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي:{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} [الكهف: 103]:-

هُمُ الحَرُورِيَّةُ(طائفة من الخوارج ينسبون إلى قرية كانت بقرب الكوفة تسمى حروراء منها خرجوا على علىﷺ)؟

قَالَ:لَا هُمُ اليَهُودُ وَ النَّصَارَى أَمَّا اليَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ

وَ أَمَّا النَّصَارَى فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ وَ قَالُوا: لاَ طَعَامَ فِيهَا وَ لاَ شَرَابَ

وَ الحَرُورِيَّةُ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ(يبطلونه ولا يوفون به وعهد الله تعالى الإيمان به وما أعطي به من العهود والذمم)مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ (إبرامه وتوثيقه)وَ كَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ الفَاسِقِينَ

*قال بن كثير في تعليقه على الحديث:

وَ إِنَّمَا هِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقَةٍ مَرْضِيَّةٍ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُصِيبٌ فِيهَا وَ أَنَّ عَمَلَهُ مَقْبُولٌ وَ هُوَ مُخْطِئٌ وَ عَمَلُهُ مَرْدُودٌ كَمَا قَالَ{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ 2عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ 3تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}[الْغَاشِيَةِ

وَ قَوْلُهُ{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}[الْفُرْقَانِ: 23]

وَ قَالَ{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا}[النُّورِ: 39] ١٠٣

(ٱلَّذِينَ ضَلَّ)بطل و اضمحل(سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)عملوا أَعْمَالًا بَاطِلَةً عَلَى غَيْرِ شَرِيعَةٍ مَشْرُوعَةٍ مَرْضِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ

كل ما عملوه من عمل يحسبون أنهم محسنون فى صنعه

فكيف بأعمالهم التى يعلمون أنها باطلة و أنها محادة لله و رسله و معاداة؟!!

فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم فــ(خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)١٠٤

النيّةَ النيّةَ!!

في كل جمعة أقرأ سورة الكهف، لكن في جمعة من الجُمع، مررتُ على آخر صفحة منها، وتحديدًا على قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾[1] الكهف: ١٠٣-١٠٤، فوقفتُ متأملة: يا الله!!! أيُمكن أن يعمل الإنسان أعمالا قد تكون سببا في خسارتـــه؛ وهو يظن أنه يحسن العمل؟!! وأخذت بعدها أتعاهد نيتي، سائلةً الله ربي أن يجعل كل أعمالي خالصة لوجهه!.

(أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)جحدوا(بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ)الآيات القرآنية و الآيات العيانية الدالة على وجوب الإيمان به و ملائكته و رسله و كتبه و اليوم الآخر.

(فَحَبِطَتۡ)بسبب ذلك

(أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا)لأن الوزن فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات و النظر فى الراجح منها و المرجوح و هؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها و هو الإيمان

***البخارى 4729 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺقَالَ: -**
إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ(الضخم فى جسمه ولا إيمان فى قلبه)السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَ قَالَ:- اقْرَءُوا {فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}[الكهف: 105]

كما قال تعالى:- (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا)

لكن تعد أعمالهم و تحصى و يقررون بها و يخزون بها على رءوس الأشهاد ثم يعذبون عليها ﴿١٠٥﴾

و لهذا قال:- (ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ)أى:حبوط أعمالهم و أنه لا يقام لهم يوم القيامة(وَزۡنًا)لحقارتهم و خستهم

(بِمَا كَفَرُواْ)بكفرهم بآيات الله

(وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا)و اتخاذهم آياته و رسله هزوا يستهزئون بها و يسخرون منها

مع أن الواجب فى آيات الله و رسله:-

1-الإيمان التام بها 2-و التعظيم لها 3-و القيام بها أتم القيام

و هؤلاء عكسوا القضية فانعكس أمرهم و تعسوا و انتكسوا فى العذاب﴿١٠٦﴾

و لما بين مآل الكافرين و أعمالهم بين أعمال المؤمنين و مآلهم فقال:-

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)بقلوبهم(وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)بجوارحهم

و شمل هذا الوصف جميع الدين عقائده و أعماله أصوله و فروعه الظاهرة و الباطنة فهؤلاء-على اختلاف طبقاتهم من الإيمان و العمل الصالح-

(كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ)أى:-الْبُسْتَانُ بِالرُّومِيَّةِ

يحتمل أن المراد بجنات الفردوس أعلى الجنة و أوسطها و أفضلها و أن هذا الثواب لمن كمل فيه الإيمان و العمل الصالح و الأنبياء و المقربون.

*البخارى2790 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ
وَ أَقَامَ الصَّلاَةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِى وُلِدَ فِيهَا» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ؟

. (أوسط الجنة). (أراه) (تفجر)

قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ(هو البستان الذى يجمع ما في البساتين كلها من شجر و زهر ونبات)فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ(أفضلها و خيرها) وَ أَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - (أظنه وهذا من كلام يحيى بن صالح شيخ البخاري أي أظنه قال (فوقه. .))فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ
وَ مِنْهُ تَفَجَّرُ(تنشق)أَنْهَارُ الجَنَّةِ» قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ:وَ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ

*و يحتمل أن يراد بها جميع منازل الجنان فيشمل هذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان من:-

المقربين و الأبرار و المقتصدين كل بحسب حاله و هذا أولى المعنيين لعمومه

و لذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس و لأن الفردوس يطلق على البستان المحتوى على:-

الكرم أو الأشجار الملتفة و هذا صادق على جميع الجنة فجنة الفردوس

(نُزُلًا)و ضيافة لأهل الإيمان و العمل الصالح

و أى ضيافة أجل و أكبر و أعظم من هذه الضيافة المحتوية على كل نعيم للقلوب و الأرواح و الأبدان

و فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين من المنازل الأنيقة والرياض الناضرة والأشجار المثمرة والطيور المغردة المشجية والمآكل اللذيذة والمشارب الشهية والنساء الحسان والخدم والولدان والأنهار السارحة و المناظر الرائقة و الجمال الحسى و المعنوى و النعمة الدائمة

*و أعلى ذلك و أفضله و أجله التنعم بالقرب من الرحمن و نيل رضاه الذى هو أكبر نعيم الجنان و التمتع برؤية وجهه الكريم و سماع كلام الرءوف الرحيم فلله تلك الضيافة ما أجلها و أجملها و أدومها و أكملها!!

و هى أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق أو تخطر على القلوب

فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علما حقيقيا يصل إلى قلوبهم لطارت إليها قلوبهم بالأشواق

و لتقطعت أرواحهم من ألم الفراق و لساروا إليها زرافات ووحدانا و لم يؤثروا عليها دنيا فانية و لذات منغصة متلاشية و لم يفوتوا أوقاتا تذهب ضائعة خاسرة يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة

و لكن الغفلة شملت و الإيمان ضعف و العلم قل و الإرادة نفذت فكان ما كان فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ﴿١٠٧﴾

(خَٰلِدِينَ فِيهَا)هذا هو تمام النعيم إن فيها النعيم الكامل و من تمامه أنه لا ينقطع

(لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا)

تحولا و لا انتقالا لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم و يبهجهم و يسرهم و يفرحهم و لا يرون نعيما فوق ما هم فيه.
*تَنْبِيهٌ عَلَى رَغْبَتِهِمْ فِيهَا و حُبِّهِمْ لَهَا مَعَ أَنَّهُ قَدْ يُتَوَهَّمُ فِيمَنْ هُوَ مُقِيمٌ فِي الْمَكَانِ دَائِمًا أَنَّهُ يَسْأَمُهُ أَوْ يَمَلُّهُ فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا الدَّوَامِ و الْخُلُودِ السَّرْمَدِيِّ لَا يَخْتَارُونَ عَنْ مُقَامِهِمْ ذَلِكَ مُتَحَوَّلًا و لَا انْتِقَالًا و لَا ظَعْنًا و لَا رِحْلَةً و لَا بَدَلًا ١٠٨

(قُل)لهم مخبرا عن عظمة البارى و سعة صفاته و أنها لا يحيط العباد بشيء منها:–

(لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ)أى: هذه الأبحر الموجودة فى العالم

(مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي)يُكتب كلام الله من علمه و حكمه و ما أوحاه إلى ملائكته ورسله
*أى: و أشجار الدنيا من أولها إلى آخرها من أشجار البلدان و البرارى و البحار أقلام

(لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ)و تكسرت الأقلام(قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي)و هذا شيء عظيم لا يحيط به أحد.

(وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ)بمثل البحر بحارًا أخرى(مَدَدٗا)له

و قال:–(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
و هذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان لأن هذه الأشياء مخلوقة و جميع المخلوقات منقضية منتهية
و أما كلام الله فإنه من جملة صفاته و صفاته غير مخلوقة و لا لها حد ولا منتهى فأى سعة و عظمة تصورتها القلوب فالله فوق ذلك و هكذا سائر صفات الله تعالى كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته
فلو جمع علم الخلائق من الأولين و الآخرين أهل السماوات و أهل الأرض لكان بالنسبة إلى علم العظيم أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر و عظمته ذلك بأن الله له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة و أن إلى ربك المنتهى ١٠٩

(قُلۡ)يا محمد للكفار و غيرهم:–

(إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ)

لست بإله و لا لي شركة فى الملك و لا علم بالغيب و لا عندى خزائن الله عبد من عبيد ربى
*فَمَنْ زَعَمَ أَنِّي كَاذِبٌ فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْمَاضِي عَمَّا سَأَلْتُمْ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ و خَبَرِ ذِي الْقَرْنَيْنِ مِمَّا هُوَ مُطَابِقٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَوْلَا مَا أَطْلَعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ و أَنَا أُخْبِرُكُمْ

(يُوحَىٰٓ إِلَيَّ)فضلت عليكم بالوحي الذى يوحيه الله إلى الذى أجله الإخبار لكم:–

(أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ)أى: لا شريك له و لا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره و أدعوكم إلى العمل الذى يقربكم منه و ينيلكم ثوابه و يدفع عنكم عقابه.

و لهذا قال:-(فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ)ثوابه و جزاءه الصالح

(فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا)و هو الموافق لشرع الله من واجب و مستحب

(وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا)لا يرائى بعمله بل يعمله خالصا لوجه الله تعالى

*فهذا الذى جمع بين الإخلاص و المتابعة هو الذى ينال ما يرجو و يطلب

و أما من عدا ذلك فإنه خاسر في دنياه و أخراه و قد فاته القرب من مولاه و نيل رضاه.

*وَ هَذَانَ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ صوابًا عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

*مسلم (2985) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

" قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى:-أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَ شِرْكَهُ "

*أحمد23630 - عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:-

إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ "قَالُوا:-وَ مَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ:الرِّيَاءُ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:-إِذَا جُزِىَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ:-

اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً ﴿١١٠﴾

19-سورة مريم-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾
وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾
يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ
لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا
وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ
وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا
﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾

*أحمد 1740- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النبي ﷺ
قَالَتْ:-لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا وَ عَبَدْنَا اللهَ لَا نُؤْذَى وَ لا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ
وَ أَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ
فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيراً وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقًا إِلا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً
ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ و عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ
وَ أَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ وَ قَالُوا لَهُمَا:-ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ ثُمَّ قَدِّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسْلِمَهُم إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ
قَالَتْ: فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّوَ نَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍوَ عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ ثُمَّ قَالا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ:-
إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْوَ جَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتُمْ وَ قَدْ بَعَثَنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمِ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِنَرُدَّهُم إِلَيْهِمْ
فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ فَتُشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُم إِلَيْنَا وَلا يُكَلِّمَهُمْ فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْنًا وَ أَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُم إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا
ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْوَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ
وَ قَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمِ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْوَ أَعْمَامِهِمْ وَ عَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمِ إِلَيْهِمْ فَهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْنًا وَ أَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَ عَاتَبُوهُمْ فِيهِ.
قَالَتْ:وَ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَوَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلامَهُمْ فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ قَوْمُهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْنًا وَ أَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا فَلْيَرُدَّاهُمِ إِلَى بِلادِهِمْ وَ قَوْمِهِمْ

قَالَت: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ ثُمَّ قَالَ: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ
ثُمَّ قَالَ: لَا هَيْمُ اللهِ إِذاً لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا وَ لا أُكَادُ قَوْمًا جَاوَرُونِي وَ نَزَلُوا بِلادِى وَ اخْتَارُونِى عَلَى مَنْ سِوَاىَ حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولانِ أَسْلَمْتُهُمِ الَيْهِمَا وَرَدَدْتُهُمِ الَى قَوْمِهِمْ وَ إِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا وَ أَحْسَنْتُ جِوارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي.
قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺفَدَعَاهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا
ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟
قَالُوا: نَقُولُ وَاللهِ مَا عَلَّمَنَا وَ مَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺكَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.
فَلَمَّا جَاءُوهُ وَ قَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلَهُمْ فَقَالَ:-
مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِى فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَ لَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَ لا فِى دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟
قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِى كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ:-أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَ نَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَ نَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَ نَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَ نُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ:-نَسَبَهُ وَ صِدْقَهُ وَ أَمَانَتَهُ وَ عَفَافَهُ "
فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَ نَعْبُدَهُ وَ نَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَ الْأَوْثَانِ وَ أَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَ صِلَةِ الرَّحِمِ وَ حُسْنِ الْجِوَارِ وَ الْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَ نَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَ قَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ وَ قَذْفِ الْمُحْصَنَةِ
وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِوَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَ:-
فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلام فَصَدَّقْنَاهُ وَ آمَنَّا بِهِ وَ اتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَ حَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَ أَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَ فَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَ أَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ
فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَ شَقُّوا عَلَيْنَا وَ حَالُوا بَيْنَنَا وَ بَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَ اخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَ رَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ:-
هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟قَالَتْ:-فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ:-نَعَمْ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ:-
فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ (كهيعص)قَالَتْ:-فَبَكَى وَ اللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ وَ بَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ:-
إِنَّ هَذَا وَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ انْطَلِقَا فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُهُم الَيْكُم ابَدًا وَلا أُكَادُ
قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللهِ لانَبِّئَنَّهُمْ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُمْ
ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ – وَ كَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا -:-
لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ لَهُم ارْحَامًا وَ إِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا.
قَالَ:وَ اللهِ لاخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ قَالَتْ: ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ
فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا فَأَرْسِلِ الَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ
قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ قَالَتْ:وَ لَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: -
مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا:-
نَقُولُ وَاللهِ فِيهِ مَا قَالَ اللهُ وَ مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ
قَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:نَقُولُ فِيهِ الَّذِى جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا:-
هُوَ عَبْدُ اللهِ وَ رَسُولُهُ وَ رُوحُهُ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ قَالَتْ:-

فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا ثُمَّ قَالَ:-
مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ
فَقَالَ:وَ إِنْ نَخَرْتُمْ وَاللهِ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِى-وَ السُّيُومُ: الْآمِنُونَ-مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ
ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا ذَهَبًا وَ أَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ-وَ الدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ:-الْجَبَلُ-رُدُّوا
عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا فَلا حَاجَةَ لَنَا بِهَا فَوَاللهِ مَا أَخَذَ اللهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي
فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ وَ مَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ.
قَالَتْ:-فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ وَ أَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ.
قَالَتْ:-فَوَاللهِ إِنَّا عَلَى ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ-يَعْنِي مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ-قَالَ:-
فَوَاللهِ مَا عَلِمْنَا حُزْنًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنٍ حَزِنَّاهُ عِنْدَ ذَلِكَ تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ عَلَى النَّجَاشِيِّ
فَيَأْتِيَ رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ.
قَالَتْ:-وَ سَارَ النَّجَاشِيُّ وَ بَيْنَهُمَا عُرْضُ النِّيلِ قَالَتْ: فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: -
مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقْعَةَ الْقَوْمِ ثُمَّ يَأْتِيَنَا بِالْخَبَرِ؟قَالَتْ: فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ: أَنَا
قَالَتْ:وَ كَانَ مِنْ أَحْدَثِ الْقَوْمِ سِنًّا قَالَتْ: فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ
ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النِّيلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ.
قَالَتْ:وَ دَعَوْنَا اللهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ وَ التَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلادِهِ وَ اسْتَوْسَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ
فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَ هُوَ بِمَكَّةَ

قصة زكريا و بشارته بيحيى 1-15

(كٓهيعٓصٓ) ﴿١﴾أى: هذا (ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ)

سنقصه عليك و نفصله تفصيلا يعرف به حالة نبيه زكريا و آثاره الصالحة و مناقبه الجميلة

فإن فى قصها عبرة للمعتبرين و أسوة للمقتدين و لأن فى تفصيل رحمته لأوليائه و بأى سبب حصلت لهم مما يدعو إلى محبة الله تعالى و الإكثار من ذكره و معرفته و السبب الموصل إليه.

و ذلك أن الله تعالى اجتبى و اصطفى زكريا عليه السلام لرسالته و خصه بوحيه فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين و دعا العباد إلى ربه و علمهم ما علمه الله و نصح لهم فى حياته و بعد مماته كإخوانه من المرسلين و من اتبعهم فلما رأى من نفسه الضعف و خاف أن يموت و لم يكن أحد ينوب منابه فى دعوة الخلق إلى ربهم و النصح لهم شكا إلى ربه ضعفه الظاهر و الباطن

*مسلم (2379)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:-«كَانَ زَكَرِيَّاءُ نَجَّارًا» ﴿٢﴾

(إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا)و ناداه نداء خفيا ليكون أكمل و أفضل و أتم إخلاصا

*قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ:-إِنَّمَا أَخْفَى دُعَاءَهُ لِئَلَّا يُنْسَبَ فِي طَلَبِ الْوَلَدِ إِلَى الرُّعُونَةِ لِكِبَرِهِ.
وَ قَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا أَخْفَاهُ لِأَنَّهُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ.كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ{إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا}:-
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْقَلْبَ التَّقِيَّ وَ يَسْمَعُ الصَّوْتَ الْخَفِيَّ﴿٣﴾

فـ(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ)وهى و ضعف(ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي)و إذا ضعف العظم الذى هو عماد البدن ضعف غيره

(وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا)لأن الشيب دليل الضعف و الكبر و رسول الموت و رائده و نذيره

فتوسل إلى الله تعالى بضعفه و عجزه و هذا من أحب الوسائل إلى الله لأنه يدل على التبرى من الحول و القوة و تعلق القلب بحول الله و قوته ﴿٤﴾

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا)أى:-لم تكن يا رب تردنى خائبا و لا محروما من الإجابة بل لم تزل بى حفيا و لدعائى مجيبا و لم تزل ألطافك تتوالى على و إحسانك واصلا إلى

و هذا توسل إلى الله بإنعامه عليه و إجابة دعواته السابقة فسأل الذى أحسن سابقا أن يتمم إحسانه لاحقا﴿٥﴾

(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ)العصبة(مِن وَرَآءِى)أى:-و إنى خفت من يتولى على بنى إسرائيل من بعد موتى أن لا يقوموا بدينك حق القيام و لا يدعوا عبادك إليك و ظاهر هذا أنه لم ير فيهم أحدا فيه لياقة للإمامة في الدين و هذا فيه شفقة زكريا عليه السلام و نصحه و أن طلبه للولد ليس كطلب غيره قصده مجرد المصلحة الدنيوية و إنما قصده مصلحة الدين و الخوف من ضياعه و رأى غيره غير صالح لذلك

و كان بيته من البيوت المشهورة فى الدين و معدن الرسالة و مظنة للخير فدعا الله أن يرزقه ولدا يقوم بالدين من بعده

*البخارى 6727 عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:-«لاَ نُوْرَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»

و اشتكى فقال:-

(وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا)ليست تلد أصلا و أنه قد بلغ من الكبر عتيا.أى:عمرا يندر معه وجود الشهوة و الولد

(فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا)و هذه الولاية ولاية:-الدين و ميراث النبوة و العلم و العمل

و لهذا قال:-(يَرِثُنِي)على ميراث النبوة(وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ)كقوله(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ)[النمل: 16]

(وَاجْعَلْهُ)يا(رَبِّ)عبدا صالحا(رَضِيًّا)ترضاه و تحببه إلى عبادك

و الحاصل أنه سأل الله ولدا ذكرا صالحا يبق بعد موته و يكون وليا من بعده و يكون نبيا مرضيا عند الله و عند خلقه و هذا أفضل ما يكون من الأولاد و من رحمة الله بعبده أن يرزقه ولدا صالحا جامعا لـ:-

مكارم الأخلاق و محامد الشيم ﴿٦﴾

فرحمه ربه و استجاب دعوته فقال :-

(يَازَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)أى:بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ«يحيى»و سماه الله له«يحيى»

و كان اسما موافقا لمسماه:-يحيا حياة حسية فتتم به المنة و يحيا حياة معنوية و هى حياة القلب و الروح بـ:-

الوحى و العلم و الدين﴿٧﴾

(لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا)أى:-لم يسم هذا الاسم قبله أحد

*و يحتمل أن المعنى:-

لم نجعل له من قبل مثيلا و مساميا فيكون ذلك بشارة بكماله و اتصافه بالصفات الحميدة و أنه فاق من قبله

و لكن على هذا الاحتمال هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصا بإبراهيم و موسى و نوح عليهم السلام

و نحوهم ممن هو أفضل من يحيى قطعا فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود الذى طلبه استغرب و تعجب ﴿٨﴾

و﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ﴾النهاية﴿مِنَ ٱلۡكِبَرِ﴾

﴿عِتِيًّا﴾يبست مفاصى و رقت عظامى؟

*و الحال أن المانع من وجود الولد موجود بى و بزوجتى؟

و كأنه وقت دعائه لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد فى قلبه و شدة الحرص العظيم على الولد

و فى هذه الحال حين قُبِلَت دعوته تعجب من ذلك ﴿٩﴾

فأجابه الله بقوله:-﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ.

*أى: الأمر مستغرب فى العادة و فى سنة الله فى الخليقة و لكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون

أسبابها فذلك هين عليه ليس بأصعب من إيجاده قبل و لم يكن شيئا ﴿١٠﴾

*ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِمَّا سَأَلَ عَنْهُ فَقَالَ:-﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ﴾أى:-يطمئن بها قلبى و ليس هذا شكا فى خبر الله

*و إنما هو كما قال الخليل ﷺ:﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾

فطلب زيادة العلم و الوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين فأجابه الله إلى طلبته رحمة به

فـــــ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾علامتك﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾و فى الآية الأخرى﴿ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا﴾

و المعنى واحد لأنه تارة يعبر بالليالى و تارة بالأيام و مؤداها واحد و هذا من الآيات العجيبة فإن منعه من

الكلام مدة ثلاثة أيام و عجزه عنه من غير خرس و لا آفة

بل كان سويا لا نقص فيه من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد و مع هذا ممنوع من الكلام الذى يتعلق

بالآدميين و خطابهم.

و أما التسبيح و التهليل و الذكر و نحوه فغير ممنوع منه و لهذا قال فى الآية الأخرى:-

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾

فاطمأن قلبه و استبشر بهذه البشارة العظيمة و امتثل لأمر الله له بالشكر بعبادته و ذكره فعكف فى محرابه

و خرج على قومه منه ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾أى:-بالإشارة و الرمز

﴿ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾لأن البشارة بـ « يحيى » فى حق الجميع مصلحة دينية ﴿١١﴾

يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾
وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾
وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا
فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾
قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ
وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ
وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ
إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي
قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾

فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله فقال:-(يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ)بجد و اجتهاد

و دل الكلام السابق على ولادة يحيى و شبابه و تربيته

(بِقُوَّةٖ)و ذلك بـ:-

1-الاجتهاد فى حفظ ألفاظه 2-و فهم معانيه 3-و العمل بأوامره و نواهيه

هذا تمام أخذ الكتاب بقوة فامتثل أمر ربه و أقبل على الكتاب فحفظه و فهمه و جعل الله فيه من الذكاء و الفطنة ما لا يوجد فى غيره و لهذا قال:-

(وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا)معرفة أحكام الله و الحكم بها و هو في حال صغره و صباه﴿١٢﴾

(و)آتيناه أيضا(وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا)أى:رحمة و رأفة تيسرت بها أموره و صلحت بها أحواله و استقامت بها أفعاله.

(وَزَكَوٰةٗۖ)طهارة من الآفات و الذنوب فطهر قلبه و تزكى عقله

و ذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة و الأخلاق الرديئة و زيادة الأخلاق الحسنة و الأوصاف المحمودة

و لهذا قال:(وَكَانَ تَقِيّٗا)أى:فاعلا للمأمور تاركا للمحظور و من كان مؤمنا تقيا كان لله وليا

و كان من أهل الجنة التى أعدت للمتقين و حصل له من الثواب الدنيوى والأخروى ما رتبه الله على التقوى ﴿١٣﴾

(و)كان أيضا(وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ)أى:-لم يكن عاقا و لا مسيئا إلى أبويه بل كان محسنا إليهما بالقول و الفعل.

(وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا)متجبرا

(عَصِيًّا)متكبرا عن عبادة الله و لا مترفعا على عباد الله و لا على والديه

بل كان متواضعا متذللا مطيعا أوابا لله على الدوام فجمع بين القيام بحق الله و حق خلقه

و لهذا حصلت له السلامة من الله في جميع أحواله مبادئها و عواقبها﴿١٤﴾

فلذا قال:-

(وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا)لَهُ الْأَمَانُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَحْوَالِ.

*و ذلك يقتضى سلامته من الشيطان و الشر و العقاب فى هذه الأحوال الثلاثة و ما بينها و أنه سالم من النار و الأهوال و من أهل دار السلام فصلوات الله و سلامه عليه و على والده و على سائر المرسلين و جعلنا من أتباعهم إنه جواد كريم.

*وَ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ:-أَوْحَشُ مَا يَكُونُ الْخَلْقُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ:-

1-يَوْمَ يُولَدُ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجًا مِمَّا كَانَ فِيهِ

2-وَ يَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْمًا لَمْ يَكُنْ عَايَنَهُمْ

3-وَ يَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ عَظِيمٍ.

قَالَ:فَأَكْرَمَ اللَّهُ فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فَخَصَّهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ {وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}﴿١٥﴾

*لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ زَكَرِيَّاﷺوَ أَنَّهُ أَوْجَدَ مِنْهُ فِي حَالِ كِبَرِهِ وَ عُقْمِ زَوْجَتِهِ وَلَدًا زَكِيًّا طَاهِرًا مُبَارَكًا -
عَطَفَ بِذِكْرِ قِصَّةِ مَرْيَمَ فِي إِيجَادِهِ وَلَدَهَا عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَبٍ
فَإِنَّ بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ مُنَاسَبَةً وَ مُشَابَهَةً وَ لِهَذَا ذَكَرَهُمَا فِي آلِ عِمْرَانَ وَ هَاهُنَا وَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ
يُقْرِنُ بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ لِتَقَارُبِ مَا بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى لِيَدُلَّ عِبَادَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ و عظمة سلطانه و أنه على ما يشاء قَادِرٌ

*لما ذكر قصة زكريا و يحيي و كانت من الآيات العجيبة انتقل منها إلى ما هو أعجب منها تدريجا من الأدنى إلى الأعلى فقال:-

قصة مريم و حملها بعيسى 16-40

(وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ)الكريم(مَرۡيَمَ)عليها السلام فى حالها الحسنة

و هذا من أعظم فضائلها أن تذكر في الكتاب العظيم الذى يتلوه المسلمون فى مشارق الأرض و مغاربها

تذكر فيه بأحسن الذكر و أفضل الثناء جزاء لعملها الفاضل و سعيها الكامل أى:

*وَ هِيَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ مِنْ سُلَالَةِ دَاوُدَﷺوَ كَانَتْ مِنْ بَيْتٍ طَاهِرٍ طَيِّبٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ.
وَ قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى قِصَّةَ وِلَادَةِ أُمِّهَا لَهَا فِي "آلِ عِمْرَانَ"وَ أَنَّهَا نَذَرَتْهَا مُحَرَّرَةً أَيْ:- تَخْدُمُ مَسْجِدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ
وَ كَانُوا يَتَقَرَّبُونَ بِذَلِكَ{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}[آلِ عِمْرَانَ: 37]
وَ نَشَأَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ نَشْأَةً عَظِيمَةً فَكَانَتْ إِحْدَى الْعَابِدَاتِ النَّاسِكَاتِ الْمَشْهُورَاتِ بِالْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ وَ التَّبَتُّلِ وَ الدُّءُوبِ وَ كَانَتْ فِي كَفَالَةِ زَوْجِ أُخْتِهَا
وَ قِيلَ: خَالَتِهَا-زَكَرِيَّا نَبِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ ذَاكَ وَ عَظِيمِهِمُ الَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي دِينِهِمْ.

وَ رَأَى لَهَا زَكَرِيَّا مِنَ الْكَرَامَاتِ الْهَائِلَةِ مَا بَهَرَهُ{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[آلِ عِمْرَانَ: 37]

فَذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا ثَمَرَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ وَ ثَمَرَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فى "آلِ عِمْرَانَ".

فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى -وَ لَهُ الْحِكْمَةُ وَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ-أَنْ يُوجد مِنْهَا عَبْدَهُ وَ رَسُولَهُ عِيسَى عليه السلام أَحَدَ الرُّسُلِ أُولِي الْعَزْمِ الْخَمْسَةِ الْعِظَامِ

(إِذِ)حين(ٱنتَبَذَتۡ)تباعدت(مِنۡ)عن(أَهۡلِهَا)

(مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا)مما يلي الشرق عنهم. وَ ذَهَبَتْ إِلَى شَرْقِ الْمَسْجِدِ الْمُقَدَّسِ ﴿١٦﴾

(فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا)سترا و مانعا

و هذا التباعد منها و اتخاذ الحجاب لتعتزل و تنفرد بعبادة ربها و تقنت له فى حالة الإخلاص و الخضوع و الذل لله تعالى و ذلك امتثال منها لقوله(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

(فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا)و هو جبريل عليه السلام

(فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا)أى كاملا من الرجال فى صورة جميلة و هيئة حسنة لا عيب فيه و لا نقص لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه

*فلما رأته فى هذه الحال و هى معتزلة عن أهلها منفردة عن الناس قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها و هم أهلها خافت أن يكون رجلا قد تعرض لها بسوء و طمع فيها فاعتصمت بربها و استعاذت منه ﴿١٧﴾

فـ(قَالَتۡ)له(إِنِّيٓ أَعُوذُ)ألتجئ(بِٱلرَّحۡمَٰنِ)و أعتصم برحمته(مِنكَ)أن تنالنى بسوء

(إِن كُنتَ تَقِيّٗا)أى إن كنت تخاف الله و تعمل بتقواه فاترك التعرض لى

فجمعت بين الاعتصام بربها و بين تخويفه و ترهيبه و أمره بلزوم التقوى و هى فى تلك الحالة الخالية و الشباب و البعد عن الناس و هو فى ذلك الجمال الباهر و البشرية الكاملة السوية

و لم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها و إنما ذلك خوف منها و هذا أبلغ ما يكون من العفة و البعد عن الشر و أسبابه و هذه العفة–خصوصا مع اجتماع الدواعى و عدم المانع–من أفضل الأعمال و لذلك أثنى الله عليها فقال {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [التحريم: 12]

{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 91]

فأعاضها الله بعفتها ولدا من آيات الله و رسولا من رسله فلما رأى جبريل منها الروع و الخيفة ﴿١٨﴾

(قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ)أى إنما وظيفتي و شغلى تنفيذ رسالة ربى فيك

(لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا)و هذه بشارة عظيمة بالولد و زكائه

فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة و اتصافه بالخصال الحميدة

فتعجبت من وجود الولد من غير أب ﴿١٩﴾

(قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا)زانية و الولد لا يوجد إلا بذلك؟!! ﴿٢٠﴾

(قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ)و لكن ربك قال: الأمر عليَّ سهل

(وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ)تدل على كمال قدرة الله تعالى و على أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير

و إنما تأثيرها بتقدير الله فيرى عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية لئلا يقفوا مع الأسباب و يقطعوا

النظر عن مقدرها و مسببها

(وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ)أي و لنجعله رحمة منا به و بوالدته و بالناس

*أما رحمة الله به:-فلما خصه الله بوحيه و من عليه بما من به على أولي العزم

*و أما رحمته بوالدته:-فلما حصل لها من الفخر و الثناء الحسن و المنافع العظيمة

*و أما رحمته بالناس:-فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب

و الحكمة فيؤمنون به و يطيعونه و تحصل لهم سعادة الدنيا و الآخرة

*وَ نَجْعَلُ هَذَا الْغُلَامَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ نَبِيًّا من الأنبياء دعو إلى عبادة اللَّهِ تَعَالَى وَ تَوْحِيدِهِ كَمَا قَالَ:-

{إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ 45

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عِمْرَان] أَيْ: يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ رَبِّهِ فِي مَهْدِهِ وَ كُهُولَتِهِ.

(وَكَانَ)أي وجود عيسى عليه السلامعلى هذه الحالة

(أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا)قضاء سابقا فلا بد من نفوذ هذا التقدير و القضاء فنفخ جبريل عليه السلامفي جيبها ﴿٢١﴾

*يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ أَنَّهَا لَمَّا قَالَ لَهَا جِبْرِيلُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى مَا قَالَ إِنَّهَا اسْتَسْلَمَتْ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

فَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ أَنَّ الْمَلَكَ -وَ هُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام-عِنْدَ ذَلِكَ نَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا

فَنَزَلَتِ النَّفْخَةُ حَتَّى وَلَجَتْ فِي الْفَرْجِ

(فَحَمَلَتۡهُ)لما حملت بعيسى عليه السلامخافت من الفضيحة

(فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ)فتباعدت عن الناس(مَكَانًا قَصِيًّا)قَاصِيًا مِنْهُمْ بَعِيدًا عَنْهُمْ لِئَلَّا تَرَاهُمْ وَ لَا يَرَوْهَا﴿٢٢﴾

(فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ)فلما قرب ولادها ألجأها المخاض (ليس أجاءها بمعنى أتاها)

(إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ)وَ هِيَ نَخْلَةٌ فِي الْمَكَانِ الَّذِى تَنَحَّتْ إِلَيْهِ.

وَ هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي تَلَقَّاهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ وَ لَا يَشُكُّ فِيهِ النَّصَارَى أَنَّهُ بِبَيْتِ لَحْمٍ وَ قَدْ تَلَقَّاهُ

النَّاسُ. وَ قَدْ وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ إِنْ صَحَّ.

(قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا)

فلما آلمها وجع الولادة و وجع الانفراد عن الطعام و الشراب و وجع قلبها من قالة الناس و خافت عدم صبرها تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث

(وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا)و كانت نسيا منسيا فلا تذكر.

و هذا التمنى بناء على ذلك المزعج و ليس فى هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة

و إنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل

*فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَمَنِّى الْمَوْتِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتُبْتَلَى وَ تُمْتَحَنُ بِهَذَا الْمَوْلُودِ الَّذِى لَا يَحْمِلُ النَّاسُ أَمْرَهَا فِيهِ عَلَى السَّدَادِ وَ لَا يُصَدِّقُونَهَا فِي خَبَرِهَا وَ بَعْدَمَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ عَابِدَةً نَاسِكَةًتُصْبِحُ عِنْدَهُمْ فِيمَا يَظُنُّونَ عَاهِرَةً زَانِيَةً٢٣

*فحينئذ سَكَّن الملك روعها و ثبت جأشها(فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ)لعله فى مكان أنزل من مكانها و قال لها:–

(أَلَّا تَحۡزَنِي)لا تجزعى و لا تهتمى فـــ(قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا)نهرا صغيرا تشربين منه٢٤

(وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا)أى: طريا لذيذا نافعا

(فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي)طِيبِى(عَيۡنٗاۖ)نَفْسًا

وَ لِهَذَا قَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ:-مَا مِنْ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلنُّفَسَاءِ مِنَ التَّمْرِ وَ الرُّطَبِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ٢٥

فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا
فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾
يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ
مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا
أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾
وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ
ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾
وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ
مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾

(فَكُلِي)من التمر (وَٱشۡرَبِي)من النهر(وَقَرِّي)طِيبِي(عَيۡنٗاۖ)نَفْسًا بعيسى فهذا طمأنينتها:-

1-من جهة السلامة من ألم الولادة

2-و حصول المأكل و المشرب و الهنى

* وَ لِهَذَا قَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ:-مَا مِنْ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلنُّفَسَاءِ مِنَ التَّمْرِ وَ الرُّطَبِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ.

(فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ)

و أما من جهة قالة الناس فأمرها أنها إذا رأت أحدا من البشر أن تقول على وجه الإشارة:-

(إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا)سكوتا(فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا)

أى: لا تخاطبيهم بكلام لتستريحى من قولهم و كلامهم

و كان معروفا عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة و إنما لم تؤمر بخطابهم فى نفى ذلك عن نفسها لأن الناس لا يصدقونها و لا فيه فائدة و ليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد أعظم شاهد على براءتها.

فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج و دعواها أنه من غير أحد من أكبر الدعاوى التى لو أقيم عدة من الشهود لم تصدق بذلك فجعلت بينة هذا الخارق للعادة أمرا من جنسه و هو كلام عيسى فى حال صغره جدا﴿٢٦﴾

*فلما تعلت مريم من نفاسها (فَأَتَتۡ بِهِۦ)أى:-بعيسى (قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ)

و ذلك لعلمها ببراءة نفسها و طهارتها فأتت غير مبالية و لا مكترثة فقالوا:-

(لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا)عظيما و خيما و أرادوا بذلك البغاء حاشاها من ذلك﴿٢٧﴾

(يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ)الظاهر أنه أخ لها حقيقى فنسبوها إليه و كانوا يسمون بأسماء الأنبياء

و ليس هو هارون بن عمران أخا موسى لأن بينهما قرونا كثيرة

*مسلم (2135) عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي فَقَالُوا:-

إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ يَا أُخْتَ هَارُونَ وَ مُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَ كَذَا فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَ الصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ»

*يا أخت الرجل الصالح هارون(مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ)رجل(سَوۡءٖ)يأتى الفواحش

(وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ)امرأة سوء(بَغِيّٗا)أى:-تأتى البغاء.

*أى: لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر و خصوصا هذا الشر الذى يشيرون إليه و قصدهم:-

فكيف كنت على غير وصفهما؟ و أتيت بما لم يأتيا به؟

و ذلك أن الذرية-فى الغالب-بعضها من بعض في الصلاح و ضده فتعجبوا-بحسب ما قام بقلوبهم-كيف وقع منها ﴿٢٨﴾

(فَأَشَارَتۡ)لهم (إِلَيۡهِۖ)أى:-كلموه.

*و إنما أشارت لذلك لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول:-(إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا)

فلما أشارت إليهم بتكليمه تعجبوا من ذلك و(قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا)

لأن ذلك لم تجر به عادة و لا حصل من أحد في ذلك السن﴿٢٩﴾

فحينئذ قال عيسى عليه السلام و هو فى المهد صبى:-(قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا)

فخاطبهم بوصفه بالعبودية و أنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلها أو ابنا للإله تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله ﴿٣٠﴾

(إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ)و مدعون موافقته(ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ)أى: قضى أن يؤتينى الكتب

(وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا)فأخبرهم بأنه عبد الله و أن الله علمه الكتاب و جعله من جملة أنبيائه فهذا من كماله لنفسه

*ثم ذكر تكميله لغيره فقال:-(وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ)أى: فى أى مكان و أى زمان

فالبركة جعلها الله فىَّ من:-

1-تعليم الخير و الدعوة إليه 2-و النهى عن الشر 3-و الدعوة إلى الله فى أقواله و أفعاله

فكل من جالسه أو اجتمع به نالته بركته و سعد به مصاحبه.

*قَالَ مُجَاهِدٌ وَ عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ وَ الثَّوْرِيُّ:- وَ جَعَلَنِي مُعَلِّمًا لِلْخَيْرِ

(وَأَوۡصَٰنِي)بالقيام (بِـ)حقوقه التى من أعظمها(بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ)و أوصانى بحقوق عباده التى أجلها الزكاة

(مَا دُمۡتُ حَيّٗا)مدة حياتى أى:–فأنا ممتثل لوصية ربى عامل عليها منفذ لها ٣١

(وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي)و وصانى أيضا أن أبر والدتى فأحسن إليها غاية الإحسان و أقوم بما ينبغى له لشرفها و فضلها و لكونها والدة لها حق الولادة و توابعها.

*فاللَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يُقْرِنُ بَيْنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَ طَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ كَمَا قَالَ:-

{وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}[الإسراء: 23]وَ قَالَ{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}[لقمان: 14]

(وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا)متكبرا على الله مترفعا على عباده و مترفعا عَنْ عِبَادَتِهِ وَ طَاعَتِهِ وَ بِرِّ وَالِدَتِي

(شَقِيّٗا)فى دنياى أو أخراى

فلم يجعلني كذلك بل جعلنى مطيعا له خاضعا خاشعا متذللا متواضعا لعباد الله سعيدا فى الدنيا و الآخرة أنا و من اتبعنى.

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: الْجَبَّارُ الشقِي:- الذى يَقْتُل على الغضب.

*لَا تُجِدُ أَحَدًا عَاقًّا لِوَالِدَيْهِ إِلَّا وَجَدْتَهُ جَبَّارًا شَقِيًّا ثُمَّ قَرَأَ:-{وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}

قَالَ:-وَ لَا تَجِدُ سَيِّئَ الْمَلَكَةِ إِلَّا وَجَدَّتَهُ مُخْتَالًا فَخُورًا ثُمَّ قَرَأَ:-

{وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالا فَخُورًا}[النساء: 36] ٣٢

*فلما تم له الكمال و محامد الخصال بفضل الله عليه و كرمه بحصول السلامة قال:–

(وَٱلسَّلَٰمُ)الأمان(عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا)من الشر و الشيطان و العقوبة ذلك يقتضى سلامته من الأهوال و دار الفجار و أنه من أهل دار السلام فهذه معجزة عظيمة و برهان باهر على أنه رسول الله و عبدُ الله حقا ٣٣

(ذَٰلِكَ)الموصوف بتلك الصفات(عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ)من غير شك و لا مرية

بل(قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ)و كلام الله الذى لا أصدق منه قيلا و لا أحسن منه حديثا فهذا الخبر اليقينى عن عيسى عليه السلام و ما قيل فيه مما يخالف هذا فإنه مقطوع ببطلانه و غايته أن يكون شكا من قائله لا علم له به و لهذا قال:–

(ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ)يشكون فيمارون بشكهم و يجادلون بخرصهم ٣٤

فـــ(مَا كَانَ)ما ينبغى و لا يليق(لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ)لأن ذلك من الأمور المستحيلة لأنه الغنى الحميد المالك لجميع الممالك فكيف يتخذ من عباده و مماليكه ولدا؟!

(سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ)تنزه و تقدس عن الولد و النقص

(إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا)أى: من الأمور الصغار و الكبار لم يمتنع عليه و لم يستصعب

(فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ)فإذا كان قدره و مشيئته نافذا فى العالم العلوى و السفلى فكيف يكون له ولد؟!! ٣٥

و إذا كان إذا أراد شيئا قال له:–

﴿كُن فَيَكُونُ﴾فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟!

*إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ فَيَصِيرُ كَمَا يَشَاءُ كَمَا قَالَ:-{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ59 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[آلِ عِمْرَانَ]

و لهذا أخبر عيسى أنه عبد مربوب كغيره فقال:–

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾الذى خلقنا و صورنا و نفذ فينا تدبيره و صرفنا تقديره.

﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾أى: أخلصوا له العبادة و اجتهدوا في الإنابة و في هذا الإقرار بـــ:–

1–توحيد الربوبية 2–و توحيد الإلهية و الاستدلال بالأول على الثانى و لهذا قال:–

﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ﴾طريق﴿مُّسۡتَقِيمٞ﴾معتدل موصل إلى الله لكونه طريق الرسل و أتباعهم

و ما عدا هذا فإنه من طرق الغي و الضلال﴿٣٦﴾

*لما بين تعالى حال عيسى بن مريم الذى لا يشك فيها و لا يمترى أخبر أن:–

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾فرق الضلال من اليهود و النصارى و غيرهم على اختلاف طبقاتهم اختلافا فى عيسى عليه السلام

﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي عِيسَى بَعْدَ بَيَانِ أَمْرِهِ وَ وُضُوحِ حَالِهِ وَ أَنَّهُ عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فمن غال فيه و جاف:–

1–فمنهم من قال:– إنه الله 2–و منهم من قال: إنه ابن الله 3–و منهم من قال: إنه ثالث ثلاثة.

4–و منهم من لم يجعله رسولا بل رماه بأنه ولد بغى كاليهود(وَ هُمْ جُمْهُورُ الْيَهُودِ قَالُوا:كَلَامُهُ هَذَا سِحْرٌ)

و كل هؤلاء أقوالهم باطلة و آراؤهم فاسدة مبنية على:–الشك و العناد و الأدلة الفاسدة و الشبه الكاسدة

و كل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد

وَ قَالَ آخَرُونَ:-بَلْ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَ رَسُولُهُ. وَ هَذَا هُوَ قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِى أَرْشَدَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ و لهذا قال:–

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾بالله و رسله و كتبه و يدخل فيهم اليهود و النصارى القائلون بعيسى قول الكفر.

﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾أى:–يوم القيامة الذى يشهده الأولون و الآخرون أهل السماوات و أهل الأرض الخالق و المخلوق الممتلئ بالزلازل و الأهوال المشتمل على الجزاء بالأعمال فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون و يبدون و ما كانوا يكتمون.

*تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ افْتَرَى وَ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا.
وَ لَكِنْ أَنْظَرَهُمْ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ أَجَّلَهُمْ حِلْمًا وَ ثِقَةً بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُ الَّذِى لَا يَعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ كَمَا جَاءَ فِي البخاري 4686:-قال النبى ﷺ"إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ"
ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}[هُودٍ: 102]

وَ فِي البخارى 6099أَيْضًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺأَنَّهُ قَالَ:-

"لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَ هُوَ يَرْزُقُهُمْ وَ يُعَافِيهِمْ"

*وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ}[الْحَجِّ: 48]

*وَ قَالَ تَعَالَى:{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}[إِبْرَاهِيمَ: 42]

*وَ قَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّته عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

"مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ

وَ أَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ

وَ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَ النَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ"﴿٣٧﴾

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)ما أسمعهم و ما أبصرهم فى ذلك اليوم!

(يَوْمَ يَأْتُونَنَا)فيقرون بكفرهم و شركهم و أقوالهم و يقولون:–(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)

ففى القيامة يستيقنون حقيقة ما هم عليه.

(لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ)لَا يَسْمَعُونَ وَ لَا يُبْصِرُونَ وَ لَا يَعْقِلُونَ

فَحَيْثُ يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْهُدَى لَا يَهْتَدُونَ وَ يَكُونُونَ مُطِيعِينَ حيث لا ينفعهم ذلك.

*و ليس لهم عذر فى هذا الضلال لأنهم بين معاند ضال على بصيرة عارف بالحق صادف عنه

و بين ضال عن طريق الحق متمكن من معرفة الحق و الصواب

و لكنه راض بضلاله و ما هو عليه من سوء أعماله غير ساع فى معرفة الحق من الباطل

*و تأمل كيف قال: (فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ)بعد قوله(فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ)

و لم يقل « فويل لهم »ليعود الضمير إلى الأحزاب لأن من الأحزاب المختلفين طائفة أصابت الصواب

و وافقت الحق فقالت فى عيسى:–« إنه عبد الله ورسوله »فآمنوا به و اتبعوه

فهؤلاء مؤمنون غير داخلين فى هذا الوعيد فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.﴿٣٨﴾

وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا
وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ
مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ
فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾
يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾
قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾
قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ
إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾
وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾

(وَأَنذِرۡهُمۡ)الإنذار هو:–

الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب و الإخبار بصفاته و أحق ما ينذر به و يخوف به العباد

(يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ)الندم على التقصير

حين يقضى الأمر فيجمع الأولون و الآخرون فى موقف واحد و يسألون عن أعمالهم.

فمن آمن بالله:–و اتبع رسله سعد سعادة لا يشقى بعدها

و من لم يؤمن بالله:–و يتبع رسله شقى شقاوة لا سعادة بعدها و خسر نفسه و أهله

*فحينئذ:–

1–يتحسر و يندم ندامة 2–تتقطع منها القلوب 3–و تنصدع منها الأفئدة

(إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ)فرغ من الحساب

(وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ)فى الدنيا حيث كانوا يستطيعون أن يعملوا للآخرة

(وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ)بالله تعالى و ما بينه فى شرائعه مما يكون فى الآخرة

*و أى حسرة أعظم من فوات رضا الله و جنته و استحقاق سخطه و النار:–

على وجه لا يتمكن من الرجوع ليستأنف العمل و لا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟!

فهذا قدامهم و الحال أنهم في الدنيا فى غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر بقلوبهم و لو خطر فعلى سبيل الغفلة قد عمتهم الغفلة و شملتهم السكرة فهم لا يؤمنون بالله و لا يتبعون رسله قد ألهتهم دنياهم و حالت بينهم و بين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية(٣٩)

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ)إنا نحن الوارثون للأرض(وَمَنْ عَلَيْهَا)بفنائهم و بقائنا بعدهم و حُكْمنا فيهم (وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)و إلينا مصيرهم و حسابهم فنجازيهم على أعمالهم.

*فالدنيا و ما فيها من أولها إلى آخرها ستذهب عن أهلها و يذهبون عنها و سيرث الله الأرض و من عليها و يرجعهم إليه فيجازيهم بما عملوا فيها و ما خسروا فيها أو ربحوا

فمن فعل خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

*البخارى4730 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
يُؤْتَى بِالْمَوْتِ(يجسد ويؤتى به)كَهَيْئَةِ(كخلقة)كَبْشٍ(ذكر الغنم)أَمْلَحَ(أبيض يشوبه سواد)فَيُنَادِي مُنَادٍ:-
يَا أَهْلَ الجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ(يمدون أعناقهم لينظروا)وَ يَنْظُرُونَ فَيَقُولُ:هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟
فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا المَوْتُ وَ كُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ثُمَّ يُنَادِي:-يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَ يَنْظُرُونَ
فَيَقُولُ:و هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا المَوْتُ وَ كُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ:-
يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ(استمرار وعدم فناء)فَلاَ مَوْتَ وَ يَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ:-
{وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ[مريم: 39]وَ هَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا {وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[مريم: 39]

*أجل الكتب و أفضلها و أعلاها هذا الكتاب المبين و الذكر الحكيم فإن ذكر فيه الأخبار كانت أصدق الأخبار و أحقها

و إن ذكر فيه الأمر و النهي:-كانت أجل الأوامر و النواهيو أعدلها و أقسطها

و إن ذكر فيه الجزاء و الوعد و الوعيد:- كان أصدق الأنباء و أحقها و أدلها على الحكمة و العدل و الفضل.

و إن ذكر فيه الأنبياء و المرسلون:-كان المذكور فيه أكمل من غيره و أفضل

و لهذا كثيرا ما يبدئ و يعيد فى قصص الأنبياء الذين فضلهم على غيرهم و رفع قدرهم و أعلى أمرهم بسبب ما قاموا به من:-عبادة الله و محبته و الإنابة إليه و القيام بحقوقه و حقوق العباد و دعوة الخلق إلى الله و الصبر على ذلك و المقامات الفاخرة و المنازل العالية.

*فذكر الله فى هذه السورة جملة من الأنبياء يأمر الله رسوله أن يذكرهم لأن فى ذكرهم إظهار الثناء على و عليهم و بيان فضله وإحسانه إليهم. و فيه الحث على الإيمان بهم و محبتهم و الاقتداء بهم فقال:-

قصة ابراهيم 41-50

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)جمع الله له بين الصديقية و النبوة.

فالصديق:-كثير الصدق فهو الصادق في أقواله و أفعاله و أحواله المصدق بكل ما أمر بالتصديق به.

و ذلك يستلزم:-

1-العلم العظيم الواصل إلى القلب المؤثر فيه الموجب لليقين

2-و العمل الصالح الكامل.

و إبراهيم ﷺهو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺو هو الأب الثالث للطوائف الفاضلة

و هو الذى جعل الله فى ذريته النبوة و الكتاب و هو الذي دعا الخلق إلى الله و صبر على ما ناله من العذاب العظيم ﴿٤١﴾

فدعا القريب و البعيد و اجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه و ذكر الله مراجعته إياه فقال:-

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ)مهجنا له عبادة الأوثان:

(يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ)

لم تعبد أصناما ناقصة في ذاتها و فى أفعالها فلا تسمع و لا تبصر و لا تملك لعابدها نفعا و لا ضرا بل لا تملك لأنفسها شيئا من النفع

(وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا)و لا تقدر على شيء من الدفع

فهذا برهان جلي دال على أن:-عبادة الناقص في ذاته و أفعاله مستقبح عقلا و شرعا.

و دل بتنبيهه و إشارته:-أن الذى يجب و يحسن عبادة من له الكمال الذى لا ينال العباد نعمة إلا منه و لا يدفع عنهم نقمة إلا هو و هو الله تعالى﴿٤٢﴾

(يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ)أى: يا أبت لا تحقرنى و تقول: إنى ابنك و إن عندك ما ليس عندى بل قد أعطانى الله من العلم ما لم يعطك

و المقصود من هذا قوله:-(فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا)مستقيما معتدلا

و هو:-عبادة الله وحده لا شريك له و طاعته فى جميع الأحوال

و فى هذا من لطف الخطاب و لينه ما لا يخفى فإنه لم يقل:-« يا أبت أنا عالم و أنت جاهل »

أو « ليس عندك من العلم شىء »

و إنما أتى بصيغة تقتضى أن عندى و عندك علما و أن الذى وصل إلي لم يصل إليك و لم يأتك فينبغي لك أن تتبع الحجة و تنقاد لها﴿٤٣﴾

(يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ)لأن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان كما قال تعالى:-

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)[يس : 60]

(إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا)مُخَالِفًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ فَطَرَدَهُ وَ أَبْعَدَهُ فَلَا تَتْبَعْهُ تَصِرْ مِثْلَهُ.

فمن اتبع خطواته فقد اتخذه وليا و كان عاصيا لله بمنزلة الشيطان.

و فى ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن:-

إشارة إلى أن المعاصى تمنع العبد من رحمة الله و تغلق عليه أبوابها كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته ﴿٤٤﴾

و لهذا قال:–

(يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ)أى: بسبب إصرارك على الكفر و تماديك فى الطغيان

(فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا)أى: فى الدنيا و الآخرة فــ:–

1–تنزل بمنازله الذميمة

2–و ترتع فى مراتعه الوخيمة

*فَلَا يَكُونُ لَكَ مَوْلًى وَ لَا نَاصِرًا وَ لَا مُغِيثًا إِلَّا إِبْلِيسُ وَ لَيْسَ إِلَيْهِ وَ لَا إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ بَلِ اتِّبَاعُكَ لَهُ مُوجِبٌ لِإِحَاطَةِ الْعَذَابِ بِكَ كَمَا قَالَ:-

{تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[النحل: 63]

فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه بالأسهل فالأسهل فــ:–

أخبره بعلمه و أن ذلك موجب لاتباعك إياى و أنك إن أطعتنى اهتديت إلى صراط مستقيم

ثم نهاه عن عبادة الشيطان و أخبره بما فيها من المضار﴿٤٥﴾

ثم حذره عقاب الله و نقمته إن أقام على حاله و أنه يكون وليا للشيطان فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقى

و أجاب بجواب جاهل و قال:–

(قَالَ أَرَاغِبٌ)أمعرض(أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ)

فتبجح بآلهته التى هى من الحجر و الأصنام و لام إبراهيم عن رغبته عنها

و هذا من الجهل المفرط و الكفر الوخيم يتمدح بعبادة الأوثان و يدعو إليها.

(لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ)عن شتم آلهتى و دعوتى إلى عبادة الله

(لَأَرۡجُمَنَّكَۖ)أى:–قتلا بالحجارة(وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا)أى:لا تكلمنى زمانا طويلا

فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين و لم يشتمه بل صبر و لم يقابل أباه بما يكره﴿٤٦﴾

و قال:–(قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ)أى:ستسلم من خطابى إياك بالشتم و السب و بما تكره_و ذلك لحرمة الأبوة

(سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ)أى:لا أزال أدعو الله لك بالهداية و المغفرة بأن يهديك للإسلام الذى تحصل به المغفرة

فـ(إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا)رحيما رءوفا بحالي معتنيا بي_لَطِيفًا_أَنْ هَدَانِي لِعِبَادَتِهِ وَ الْإِخْلَاصِ لَهُ_عَوَّدَهُ الْإِجَابَةَ. _الَّذِي يَهْتَمُّ بِأَمْرِهِ.

*وَ قَدِ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مُدَّةً طَوِيلَةً وَ بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ وَ بَنَى الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَ بَعْدَ أَنْ وُلِدَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ وَ إِسْحَاقُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ:{رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}[إبراهيم: 41]

فلما تبين له أنه عدو لله و أنه لا يفيد فيه شيئا ترك الاستغفار لهو تبرأ منه.

*وَ قَدِ اسْتَغْفَرَ الْمُسْلِمُونَ لِقَرَابَاتِهِمْ وَ أَهْلِيهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ وَ ذَلِكَ اقْتِدَاءً بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي ذَلِكَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}[الْمُمْتَحِنَةِ: 4] يَعْنِي إِلَّا فِي هَذَا الْقَوْلِ فَلَا تَتَأَسَّوْا بِهِ.

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَقْلَعَ عَنْ ذَلِكَ وَ رَجَعَ عَنْهُ فَقَالَ-{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}[التَّوْبَةِ: 113 114]

و قد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم فمن اتباع ملته:-

1-سلوك طريقه فى الدعوة إلى الله بطريق العلم و الحكمة و اللين و السهولة

2-و الانتقال من مرتبة إلى مرتبة

3-و الصبر على ذلك و عدم السآمة منه

4-و الصبر على ما ينال الداعى من أذى الخلق بالقول و الفعل

5-و مقابلة ذلك بالصفح و العفو بل بالإحسان القولى و الفعلى ﴿٤٧﴾

فلما أيس من قومه و أبيه قال:-

(وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)أى: أنتم و أصنامكم

(وَأَدۡعُواْ رَبِّي)و هذا شامل لدعاء العبادة و دعاء المسألة

(عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا)فلا يعطينى ما أسأله_عسى الله أن يسعدنى بإجابة دعائى و قبول أعمالى

*وَ "عَسَى" هَذِهِ مُوجِبَةٌ لَا مَحَالَةَ فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ

*و هذه وظيفة من أيس ممن دعاهم فاتبعوا أهواءهم فلم تنجع فيهم المواعظ فأصروا فى طغيانهم يعمهون أن:-

1-يشتغل بإصلاح نفسه

2-و يرجو القبول من ربه و يعتزل الشر و أهله.

*و لما كان مفارقة الإنسان لوطنه و مألفه و أهله و قومه من أشق شيء على النفس لأمور كثيرة معروفة

و منها انفراده عمن يتعزز بهم و يتكثر و كان من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه و اعتزل إبراهيم قومه﴿٤٨﴾

قال الله فى حقه:-(فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ)

*كَمَا قَالَ{وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً}[الْأَنْبِيَاءِ: 72] وَ قَالَ:{وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}[هُودٍ: 71]

(وَكُلّٗا)من إسحاق و يعقوب

(جَعَلۡنَا نَبِيّٗا)فحصل له هبة هؤلاء الصالحين المرسلين إلى الناس الذين خصهم الله بوحيه و اختارهم لرسالته و اصطفاهم من العالمين.

*البخارى3374 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ:-قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺمَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ «أَكْرَمُهُمْ أَتْقَاهُمْ»
قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ:-
«فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ»﴿٤٩﴾

(وَوَهَبْنَا لَهُم)أى: لإبراهيم و ابنيه

(مِّن رَّحْمَتِنَا)و هذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من:-
الرحمة من العلوم النافعة و الأعمال الصالحة و الذرية الكثيرة المنتشرة الذين قد كثر فيهم الأنبياء و الصالحون.

(وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)الثَّنَاءَ الْحَسَنَ
لِأَنَّ جَمِيعَ الْمِلَلِ وَ الْأَدْيَانِ يُثْنُونَ عَلَيْهِمْ وَ يَمْدَحُونَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَ سَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.
*و هذا أيضا من الرحمة التي وهبها لهم لأن الله وعد كل محسن أن ينشر له ثناء صادقا بحسب إحسانه
و هؤلاء من أئمة المحسنين فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب العالى غير الخفى
فذكرهم ملأ الخافقين و الثناء عليهم و محبتهم امتلأت بها القلوب و فاضت بها الألسنة
فصاروا قدوة للمقتدين و أئمة للمهتدين و لا تزال أذكارهم فى سائر العصور متجددة
و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم﴿٥٠﴾

قصة موسى و هارون 51-53

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ)أى:-هذا القرآن العظيم

(مُوسَىٰ)بن عمران على وجه التبجيل له و التعظيم والتعريف بمقامه الكريم و أخلاقه الكاملة

(إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا)قرئ بفتح اللام:-على معنى أن الله تعالى اختاره و استخلصه و اصطفاه على العالمين.
و قرئ بكسر الام:-على معنى أنه كان مخلص لله تعالى فى جميع أعماله و أقواله و نياته
فوصفه الإخلاص فى جميع أحواله و المعنيان متلازمان
فإن الله أخلصه لإخلاصه و إخلاصه موجب لاستخلاصه و أجل حالة يوصف بها العبد الإخلاص منه
و الاستخلاص من ربه.

(وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا)أى: جمع الله له بين الرسالة و النبوة
فالرسالة:-تقتضى تبليغ كلام المرسل و تبليغ جميع ما جاء به من الشرع دِقِّهِ و جُلِّه.
و النبوة:-تقتضى إيحاء الله إليه و تخصيصه بإنزال الوحى إليه
فالنبوة بينه و بين ربه و الرسالة بينه و بين الخلق بل خصه الله من أنواع الوحى بأجل أنواعه و أفضلها
و هو:-تكليمه تعالى و تقريبه مناجيا لله تعالى
*فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الْكِبَارِ أُولِي الْعَزْمِ الْخَمْسَةِ وَ هُمْ: -نُوحٌ وَ إِبْرَاهِيمُ وَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ مُحَمَّدٌ
*و بهذا اختص من بين الأنبياء بأنه كليم الرحمن ﴿٥١﴾

و لهذا قال:-

وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾
وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ
وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ
وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ
أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ
إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾
تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا
وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾

(وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ)أى: الأيمن من موسى فى وقت مسيره أو الأيمن:-أى: الأبرك من اليمن و البركة.

و يدل على هذا المعنى قوله تعالى:-(أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا)

(وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا)و الفرق بين النداء و النجاء أن :-

النداء:- هو الصوت الرفيع و النجاء:- ما دون ذلك

و فى هذه إثبات الكلام لله تعالى و أنواعه من النداء و النجاء كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا لمن أنكر ذلك من الجهمية و المعتزلة و من نحا نحوهم﴿٥٢﴾

(وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا)

هذا من أكبر فضائل موسى و إحسانه و نصحه لأخيه هارون أنه سأل ربه أن يشركه فى أمره و أن يجعله رسولا مثله فاستجاب الله له ذلك و وهب له من رحمته أخاه هارون نبيا.

فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام فساعده على أمرهو أعانه عليه. كَمَا قَالَ{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ}[القَصَص: 34]وَ قَالَ:{قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}[طَه: 36]

وَ قَالَ:{فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ13وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}[الشُّعَرَاءِ]

وَ لِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:-مَا شُفِّعَ أَحَدٌ فِي أَحَدٍ شَفَاعَةً فِي الدُّنْيَا أَعْظَمُ مِنْ شَفَاعَةِ مُوسَى فِي هَارُونَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:-{وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا}﴿٥٣﴾

قصة اسماعيل 54-55

(وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ)أى:-القرآن الكريم

(إِسۡمَٰعِيلَۚ)هذا النبى العظيم الذى خرج منه الشعب العربى أفضل الشعوب و أجلها الذى منهم سيد ولد آدم.

(إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ)أى: لا يعد وعدا إلا وفى به.

و هذا شامل للوعد الذى يعقده مع الله أو مع العباد و لهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له و قال:-

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)

و فى بذلك و مكن أباه من الذبح الذى هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان ثم وصفه بالرسالة و النبوة

التى هى أكبر منن الله على عبده و أهلها من الطبقة العليا من الخلق(وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا)﴿٥٤﴾

(وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ)أى:-كان مقيما لأمر الله على أهله

فيأمرهم بالصلاة:- المتضمنة للإخلاص للمعبود

(وَٱلزَّكَوٰةِ):-المتضمنة للإحسان إلى العبيد فكمل نفسه و كمل غيره و خصوصا أخص الناس عنده و هم أهله

لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.

(وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا)و ذلك بسبب امتثاله لمراضى ربه و اجتهاده فيما يرضيه ارتضاه الله و جعله من خواص

عباده و أوليائه المقربين فرضى الله عنه و رضي هو عن ربه.

*هَذَا أَيْضًا مِنَ الثَّنَاءِ الْجَمِيلِ وَ الصِّفَةِ الْحَمِيدَةِوَ الْخِلَّةِ السَّدِيدَةِ حَيْثُ كَانَ مُثَابِرًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ آمِرًا بِهَا

لِأَهْلِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ:{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}[طه: 132]

*وَ قَالَ{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ}[التَّحْرِيمِ: 6]

أَيْ: مُرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لَا تَدَعُوهُمْ هَمْلًا فَتَأْكُلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

*أبي داود1308عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَ أَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ

رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَ أَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»﴿٥٥﴾

قصة ادريس 56-57

(وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ)على وجه التعظيم و الإجلال و الوصف بصفات الكمال.

(إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا) جمع الله له بين الصديقية الجامعة لـ:-

1-التصديق التام 2-و العلم الكامل 3-و اليقين الثابت 4-و العمل الصالح

(نَّبِيّٗا)و بين اصطفائه لوحيه و اختياره لرسالته﴿٥٦﴾

(وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا)أى:رفع الله ذكره فى العالمين و منزلته بين المقربين فكان عالى الذكر عالى المنزلة.

*وَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺمَرَّ بِهِ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ وَ هُوَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ﴿٥٧﴾

*لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين و خواص المرسلين و ذكر فضائلهم و مراتبهم قال:-

(أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم)نعمة لا تلحق و منة لا تسبق من النبوة و الرسالة و هم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم و أن من أطاع الله كان(مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ)

(مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ)و أن بعضهم(مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ)أى: من ذريته

(وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ)فهذه خير بيوت العالم اصطفاهم الله و اختارهم و اجتباهم

الانبياء و أحوال الأمم بعدهم 58-65

(إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ)

و كان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم المتضمنة للإخبار بالغيوب و صفات علام الغيوب والإخبار باليوم الآخر و الوعد و الوعيد

(خَرُّواْ)أى:–خضعوا لآيات الله و خشعوا لها و أثرت فى قلوبهم من الإيمان و الرغبة و الرهبة ما أوجب لهم:–

(سُجَّدٗا)أى:–السجود لربهم

(وَبُكِيّٗا۩)أى:– البكاء و الإنابة

و لم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صما و عميانا.

و فى إضافة الآيات إلى اسمه (ٱلرَّحۡمَٰنِ) دلالة على:–أن آياته من رحمته بعباده و إحسانه إليهم حيث:–

1–هداهم بها إلى الحق 2–و بصرهم من العمى 3–و أنقذهم من الضلالة 4–و علمهم من الجهالة.

*فَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ- إِدْرِيسَ وَ الَّذِى عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ: إِبْرَاهِيمَ

*وَ الَّذِى عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ:-إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَ الَّذِى عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْرَائِيلَ:-مُوسَى وَ هَارُونَ وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ(٥٨)

(فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ)

لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء المخلصون المتبعون لمراضى ربهم المنيبون إليه ذكر من أتى بعدهم و بدلوا ما أمروا به و أنه خلف من بعدهم خلف رجعوا إلى الخلف و الوراء

فـ(أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ)التى أمروا بالمحافظة عليها و إقامتها فـ:–

1–تهاونوا بها 2–و ضيعوها

و إذا ضيعوا الصلاة التى هى:–1–عماد الدين 2–و ميزان الإيمان 3–و الإخلاص لرب العالمين التى هى:–

1–آكد الأعمال 2–و أفضل الخصال كانوا لما سواها من دينهم أضيع و له أرفض

*وَ قَدِ اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِإِضَاعَةِ الصَّلَاةِ هَاهُنَا فَقَالَ قَائِلُونَ:-الْمُرَادُ بِإِضَاعَتِهَا تَرْكُهَا بِالْكُلِّيَّةِ وَ لِهَذَا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ السَّلَفِ وَ الْخَلَفِ وَ الْأَئِمَّةِ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَ قَوْلٌ عَنِ الشَّافِعِيِّ إِلَى تَكْفِيرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ

*مسلم (82) عَنْ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرًا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ:-

إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَ بَيْنَ الشِّرْكِ وَ الْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ(إن الذى يمنع من كفره كونه لم يترك الصلاة فإذا تركها لم يبق بينه وبين الشرك حائل بل دخل فيه)

(وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ)و السبب الداعى لذلك:-

أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم و إراداتها فصارت هممهم منصرفة إليها مقدمة لها على حقوق الله فنشأ من ذلك:

1-التضييع لحقوقه 2-والإقبال على شهوات أنفسهم مهما لاحت لهم حصلوها وعلى أى وجه اتفقت تناولوها

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)عذابا مضاعفا شديدا_وَادٍ فِي جَهَنَّمَ بَعِيدُ الْقَعْرِ خَبِيثُ الطَّعْمِ(٥٩)

ثم استثنى تعالى فقال:-

(إِلَّا مَن تَابَ)عن الشرك و البدع و المعاصى فأقلع عنها و ندم عليها و عزم عزما جازما أن لا يعاودها

(وَءَامَنَ)بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر

(وَعَمِلَ صَٰلِحًا)و هو العمل الذى شرعه الله على ألسنة رسله إذا قصد به وجهه

(فَأُوْلَٰٓئِكَ)الذى جمعوا بين:-1-التوبة 2-و الإيمان 3-و العمل الصالح

(يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ)المشتملة على النعيم المقيم و العيش السليم و جوار الرب الكريم

(وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا)من أعمالهم بل يجدونها كاملة موفرة أجورها مضاعفا عددها وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّوْبَةَ تُجُبُّ مَا قَبْلَهَا *وَ لِهَذَا لَا يُنْقص هَؤُلَاءِ التَّائِبُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا شَيْئًا وَ لَا قُوبِلُوا بِمَا عَمِلُوهُ قَبْلَهَا فَيُنْقَصُ لَهُمْ مِمَّا عَمِلُوهُ بَعْدَهَا لِأَنَّ ذَلِكَ ذَهَبَ هَدَرًا وَ تُرِكَ نِسْيًا وَ ذَهَبَ مَجَّانا مِنْ كَرَمِ الْكَرِيمِ وَ حِلْمِ الْحَلِيمِ(٦٠)

ثم ذكر أن الجنة التى وعدهم بدخولها ليست كسائر الجنات و إنما هى:-

(جَنَّٰتِ عَدۡنٍ)إقامة لا ظعن فيها و لا حول و لا زوال و ذلك لسعتها و كثرة ما فيها من الخيرات و السرور و البهجة و الحبور.

(ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ)بِظَهْرِ

(بِٱلۡغَيۡبِۚ)هِ ىَ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِى يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَا رَأَوْهُ وَ ذَلِكَ لِشِدَّةِ إِيقَانِهِمْ و قُوَّةِ إِيمَانِهِمْ

أى: التى وعدها الرحمن أضافها إلى اسمه(الرَّحْمَنُ):-

1-لأن فيها من الرحمة و الإحسان ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر

و سماها تعالى رحمته فقال:-(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

2-و أيضا ففى إضافتها إلى رحمته ما يدل على استمرار سرورها و أنها باقية ببقاء رحمته التى هى أثرها و موجبها و العباد فى هذه الآية المراد:-

عباد إلهيته الذين عبدوه و التزموا شرائعه فصارت العبودية وصفا لهم كقوله:-(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ)

و نحوه بخلاف عباده المماليك فقط الذين لم يعبدوه فهؤلاء و إن كانوا عبيدا لربوبيته لأنه خلقهم و رزقهم

و دبرهم فليسوا داخلين فى عبيد إلهيته العبودية الاختيارية التى يمدح صاحبها و إنما عبوديتهم عبودية اضطرار لا مدح لهم فيها.

و قوله:– (بِٱلۡغَيۡبِۚ)يحتمل أن تكون متعلقة بــــــ(وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ)

فيكون المعنى على هذا أن الله وعدهم إياها وعدا غائبا لم يشاهدوه و لم يروه فآمنوا بها و صدقوا غيبها و سعوا لها سعيها مع أنهم لم يروها فكيف لو رأوها لكانوا:–

أشد لها طلبا و أعظم فيها رغبة و أكثر لها سعيا و يكون فى هذا مدح له بإيمانهم بالغيب الذى هو الإيمان النافع.

و يحتمل أن تكون متعلقة بعباده أى: –

الذين عبدوه فى حال غيبهم و عدم رؤيتهم إياه فهذه عبادتهم و لم يروه فلو رأوه لكانوا أشد له عبادة و أعظم إنابة و أكثر حبا و أجل شوقا

و يحتمل أيضا أن المعنى:–

هذه الجنات التى وعدها الرحمن عباده من الأمور التى لا تدركها الأوصاف و لا يعلمها أحد إلا الله ففيه من التشويق لها و الوصف المجمل ما يهيج النفوس و يزعج الساكن إلى طلبها فيكون هذا مثل قوله:–

(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

و المعانى كلها صحيحة ثابتة و لكن الاحتمال الأول أولى بدليل قوله:–(إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا)

لا بد من وقوعه فإنه لا يخلف الميعاد و هو أصدق القائلين.

*تَأْكِيدٌ لِحُصُولِ ذَلِكَ وَ ثُبُوتِهِ وَ اسْتِقْرَارِهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلَا يُبَدِّلُهُ كَقَوْلِهِ:{كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولا}[الْمُزَّمِّلِ: 18]

أَيْ:كَائِنًا لَا مَحَالَةَ(٦١)

(لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا)

كلاما لاغيا لا فائدة فيه و لا ما يؤثم فلا يسمعون فيها شتما و لا عيبا و لا قولا فيه معصية لله أو قولا مكدرا

(إِلَّا سَلَٰمٗاۖ)أى:إلا الأقوال السالمة من كل عيب من ذكر لله و تحية و كلام سرور و بشارة و مطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان و سماع خطاب الرحمن و الأصوات الشجية من الحور والملائكة و الولدان و النغمات المطربة و الألفاظ الرخيمة لأن الدار دار السلام فليس فيها إلا السلام التام فى جميع الوجوه.

اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ كَقَوْلِهِ:-{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا25 إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا} [الْوَاقِعَةِ]

(وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا)أرزاقهم من المآكل و المشارب و أنواع اللذات مستمرة حيثما طلبوا و فى أى وقت رغبوا و من تمامها و لذاتها و حسنها أن تكون فى أوقات معلومة.

(بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا)ليعظم وقعها و يتم نفعها (٦٢)

فــــ(تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ)التى وصفناها بما ذكر(ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا)

أى:نُوَرِّثُها المتقين و نجعلها منزلهم الدائم الذى لا يظعنون عنه و لا يبغون عنه حولا كما قال تعالى:-

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) ﴿٦٣﴾

*استبطأ النبى ﷺجبريل عليه السلاممرة فى نزوله إليه فقال له:-«لو تأتينا أكثر مما تأتينا»-تشوقا إليه و توحشا لفراقه و ليطمئن قلبه بنزوله- فأنزل الله تعالى على لسان جبريل:-

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ)أى:-ليس لنا من الأمر شيء إن أمرنا ابتدرنا أمره و لم نعص له أمرا كما قال عنهم:-

(لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)فنحن عبيد مأمورون

(لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا)أَمْرُ الدُّنْيَا(وَمَا خَلْفَنَا)أَمْرُ الْآخِرَةِ(وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ)مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ.

*أى: له الأمور الماضية و المستقبلة و الحاضرة فى الزمان و المكان فإذا تبين أن الأمر كله لله و أننا عبيد مدبرون فيبقى الأمر دائرا بين:-«هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره» ؟

و لهذا قال:-(وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)أى: لم يكن لينساك و يهملك كما قال تعالى:-(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

بل لم يزل معتنيا بأمورك مجريا لك على أحسن عوائده الجميلة و تدابيره الجميلة.

أى:فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد فلا يحزنك ذلك و لا يهمك و اعلم أن الله هو الذى أراد ذلك لما له من الحكمة فيه

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى 4731 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهماقَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِجِبْرِيلَ:-

«مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا»فَنَزَلَتْ:-{وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا}[مريم: 64] ﴿٦٤﴾

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾
وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا
﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ
مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾
وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا
﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾
وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ
حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾
وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

ثم علل إحاطة علمه و عدم نسيانه بأنه (رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)

فربوبيته للسماوات و الأرض و كونهما على أحسن نظام و أكمله ليس فيه غفلة و لا إهمال و لا سدى و لا باطل برهان قاطع على علمه الشامل فلا تشغل نفسك بذلك

بل اشغلها بما ينفعك و يعود عليك طائله و هو:-عبادته وحده لا شريك له.

المنكرون للبعث و جزاؤهم و صفاتهم 66-75

(وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ)أي: اصبر نفسك عليها و جاهدها

و قم عليها أتم القيام و أكملها بحسب قدرتك و في الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات و المشتهيات كما قال(وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)إلى أن قال:- (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) الآية.

(هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ)أي:-لله(سَمِيّٗا)مساميا و مشابها و مماثلا من المخلوقين.

و هذا استفهام بمعنى النفي المعلوم بالعقل. أي:-لا تعلم له مساميا و لا مشابها لأنه :-

الرب و غيره مربوب الخالق و غيره مخلوق الغني من جميع الوجوه و غيره فقير بالذات من كل وجه

الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه و غيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى

فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية و أن عبادته حق و عبادة ما سواه باطل

فلهذا:-أمر بعبادته وحده و الاصطبار لها و علّل ذلك بكماله و انفراده بالعظمة و الأسماء الحسنى﴿٦٥﴾

(وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ)المراد بالانسان هاهنا :-

كل منكر للبعث مستبعد لوقوعه فيقول—مستفهما على وجه النفى و العناد و الكفر—

(أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)أى:كيف يعيدنى الله حيا بعد الموت و بعد ما كنت رميما؟!!

هذا لا يكون و لا يتصور و هذا بحسب عقله الفاسد و مقصده السيء و عناده لرسل الله و كتبه

*فلو نظر أدنى نظر و تأمل أدنى تأمل لرأى استبعاده للبعث فى غاية السخافة﴿٦٦﴾

و لهذا ذكر تعالى برهانا قاطعا و دليلا واضحا يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال:—

(أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ)أى:أو لا يلفت نظره و يستذكر حالته الأولى و أن الله خلقه أول مرة

(وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا)فمن قدر على خلقه من العدم و لم يكن شيئا مذكورا أليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق

و جمعه بعد ما تفرق؟ و هذا كقوله:—(وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَتَعَجَّبُ وَ يَسْتَبْعِدُ إِعَادَتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا قَالَ:-

{وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}[الرعد: 5]

*البخارى4974-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-قَالَ اللَّهُ:-

كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ وَ شَتَمَنِي وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ

فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّاىَ فَقَوْلُهُ:-لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَ لَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِه

وَ أَمَّا شَتْمُهُ إِيَّاىَ فَقَوْلُهُ:-اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَ أَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَ لَمْ أُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ "

*و قوله: (أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ)دعوة للنظر بالدليل العقلى بألطف خطاب و أن إنكار من أنكر ذلك مبنى على

غفلة منه عن حاله الأولى و إلا فلو تذكرها و أحضرها فى ذهنه لم ينكر ذلك﴿٦٧﴾

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ)أقسم الله تعالى و هو أصدق القائلين—بربوبيته ليحشرن هؤلاء المنكرين

للبعثهم و شياطينهم فيجمعهم لميقات يوم معلوم

(ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)

جاثين على ركبهم من شدة الأهوال و كثرة الزلزال و فظاعة الأحوال منتظرين لحكم الكبير المتعال ﴿٦٨﴾

و لهذا ذكر حكمه فيهم فقال:—

(ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ)طائفة و فرقة من الظالمين المشتركين(أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا)فى:—

الظلم و الكفر و العتو أشدهم عتوا و أعظمهم ظلما و أكبرهم كفرا فيقدمهم إلى العذاب

ثم هكذا يقدم إلى العذاب الأغلظ إثما فالأغلظ

*و هم فى تلك الحال متلاعنون يلعن بعضهم بعضا و يقول أخراهم لأولاهم:-(رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا

مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ* وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ)

و كل هذا تابع لعدله و حكمته و علمه الواسع ﴿٦٩﴾و لهذا قال:—

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾بدخول النار و مقاساة حرها

*فعلم الله محيط بمن هو أولى صليا بالنار قد علمناهم و علمنا أعمالهم و استحقاقها و قسطها من العذاب ﴿٧٠﴾

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾أي:-وارد النار بالمرور على الصراط المنصوب على متن جهنم

و هذا خطاب لسائر الخلائق برهم و فاجرهم مؤمنهم و كافرهم أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار

و اختلف فى معنى الورود فقيل:-

ورودها:--حضورها للخلائق كلهم حتى يحصل الانزعاج من كل أحد ثم بعد ينجي الله المتقين.

و قيل: ورودها:--دخولها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما.

و قيل: الورود:--هو المرور على الصراط الذي هو على متن جهنم فيمر الناس على قدر أعمالهم فمنهم من يمر كلمح البصر و كالريح و كأجاويد الخيل و كأجاويد الركاب و منهم من يسعى و منهم من يمشى مشيا و منهم من يزحف زحفا و منهم من يخطف فيلقى فى النار كل بحسب تقواه

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ مريم: ٧١

روى الإمام أحمد: عن قيس بن حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعا رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته، فقال: مايبكيكِ؟ فقالت: رأيتُك تبكي فبكيتُ، قال: إني ذكرت قول الله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾(٤)، فلا أدري أنجو منها أم لا(٥)؟.

*وَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ: كَانَ أَبُو مَيْسَرَةَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ:-
يَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي ثُمَّ يَبْكِي فَقِيلَ:مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا مَيْسَرَةَ؟ فَقَالَ:-
أُخْبِرْنَا أَنَّا وَارِدُوهَا وَ لَمْ نُخْبَرْ أَنَّا صَادِرُونَ عَنْهَا.

*وَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَتَاهُ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو رَاشِدٍ وَ هُوَ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ
قَالَ لَهُ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ:-{وَإِنْ مِنكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}؟قَالَ:-
أَمَّا أَنَا وَ أَنْتَ يَا أَبَا رَاشِدٍ فَسَنَرِدُهَا فَانْظُرْ: هَلْ نَصْدُرُ عَنْهَا أَمْ لَا .

*البخارى 7439 -عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ:-قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟
قَالَ:-«هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَ القَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟»
قُلْنَا:-لاَ قَالَ:-«فَإِنَّكُمْ لاَ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا»
ثُمَّ قَالَ:"يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ
فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ وَ أَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ وَ أَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ
حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَ غُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ
فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟قَالُوا:-كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ
فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلاَ وَلَدٌ فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا فَيُقَالُ:-
اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟

فَيَقُولُونَ:كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ:كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلاَ وَلَدٌ فَمَا تُرِيدُونَ؟
فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا فَيُقَالُ:-اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ
فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ (ما يمنعكم من الذهاب ويقعدكم عنه) وَ قَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟فَيَقُولُونَ:-
فَارَقْنَاهُمْ وَ نَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ اليَوْمَ وَ إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي: لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ
وَ إِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا قَالَ:-فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ (الله سبحانه وتعالى والجبار العالى العظيم الذى لا يقهره أحد ويقهر كل من عداه) فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ
الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَقُولُ:-
أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ:-أَنْتَ رَبُّنَا فَلاَ يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ فَيَقُولُ:هَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ آيَةٌ (علامة) تَعْرِفُونَهُ؟
فَيَقُولُونَ:السَّاقُ فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ
وَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ
فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَىْ جَهَنَّمَ "
قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا الجَسْرُ؟ قَالَ:-"مَدْحَضَةٌ (من دحضت رجله إذا زلقت و مالت) مَزِلَّةٌ (موضع تزلق فيه الأقدام) عَلَيْهِ
خَطَاطِيفُ وَ كَلاَلِيبُ (جمع خطاف وهو حديدة معوجة يختطف بها الشىء وفى معناها (الكلاليب) فهى جمع كلوب وهو حديدة معطوفة الرأس يعلق عليها اللحم وقيل هي ما يتناول به الحداد الحديد من النار) وَ حَسَكَةٌ (شوكة صلبة) مُفَلْطَحَةٌ (عريضة) لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ (منعطفة معوجة) تَكُونُ بِنَجْدٍ
(مكان مرتفع) يُقَالُ لَهَا:-السَّعْدَانُ
المُؤْمِنُ (من طلب المؤمنين من الله في الآخرة) عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَ كَالْبَرْقِ وَ كَالرِّيحِ وَ كَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ وَ الرِّكَابِ
فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَ نَاجٍ مَخْدُوشٌ (مخموش ممزوق) وَ مَكْدُوسٌ (مصروع أو مدفوع مطرود) فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ
سَحْبًا فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ (بأكثر) لِي مُنَاشَدَةً (مطالبة في حق ظهر لكم فى الدنيا) فِي الحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ المُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ
وَ إِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ (فى شأن نجاة إخوانهم من النار وفي نسخة (و بقى إخوانهم)) يَقُولُونَ:-
رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا وَ يَصُومُونَ مَعَنَا وَ يَعْمَلُونَ مَعَنَا فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:-
اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ (وزن) دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ وَ يُحَرِّمُ اللَّهُ صُوَرَهُمْ (معالم خلقتهم فلا تغيرها النار) عَلَى النَّارِ فَيَأْتُونَهُمْ وَ بَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا
ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ:-اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا
ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ:-اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ (مثل للقلة في الوزن وقيل غير ذلك) مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ
فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا "
قَالَ أَبُو سَعِيدٍ:-فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا:-{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا [النساء: 40]
"فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَ المَلاَئِكَةُ وَ المُؤْمِنُونَ فَيَقُولُ الجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ
فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا (من المحش وهو احتراق الجلد و ظهور العظم) فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ:-
مَاءُ الحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ (ما يحمله ويجئ به السيل من طين ونحوه فإنه إذا جاءت فيه حبة واستقرت على شط مجرى السيل نبتت في يوم وليلة فشبه بها سرعة عود أبدانهم وأجسامهم إليهم بعد إحراق النار لها) قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ
وَ إِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ وَ مَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ فَيَخْرُجُونَ
كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الخَوَاتِيمُ فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فَيَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ:-
هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ فَيُقَالُ لَهُمْ:-لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَ مِثْلَهُ مَعَهُ"
*مسلم(2496) عن جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﷺيَقُولُ: أَخْبَرَتْنِي أُمُّ مُبَشِّرٍ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ:
«لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا» قَالَتْ:-بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ فَانْتَهَرَهَا
فَقَالَتْ حَفْصَةُ:-{وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} [مريم: 71] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:-

{ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: 72]

*مسلم (2632) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-

«لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ»

(قال العلماء تحلة القسم ما ينحل به القسم وهو اليمين قال ابن قتيبة معناه تقليل مدة ورودها قال وتحلة القسم تستعمل في هذا في كلام العرب])

(كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا)حكما حتمه الله على نفسه وأوعد به عباده فلا بد من نفوذه ولا محيد عن وقوعه﴿٧١﴾

(ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ)الله تعالى بفعل المأمور و اجتناب المحظور

(وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ)أنفسهم بالكفر و المعاصى

(فِيهَا جِثِيًّا)جاثين على ركبهم

و هذا بسبب ظلمهم و كفرهم و جب لهم الخلود و حق عليهم العذاب و تقطعت بهم الأسباب﴿٧٢﴾

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ)أى:–على هؤلاء الكفار(ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ)واضحات الدلالة على وحدانية الله و صدق رسله توجب لمن سمعها صدق الإيمان و شدة الإيقان قابلوها بضد ما يجب لها و استهزءوا بها و بمن آمن بها و استدلوا بحسن حالهم في الدنيا على أنهم خير من المؤمنين

(قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)معارضين للحق(لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ):–

(أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ)أى: نحن و المؤمنون

(خَيْرٌ مَّقَامًا)أى: فى الدنيا من كثرة الأموال و الأولاد و توفر الشهوات

(وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)مجلسا_وَ هُوَ مَجْمَعُ الرِّجَالِ لِلْحَدِيثِ أَيْ:-نَادِيهِمْ أَعْمَرُ وَ أَكْثَرُ وَارِدًا وَ طَارِقًا

أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة أنهم أكثر مالا و أولادا و قد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا و مجالسهم و أنديتهم مزخرفة مزوقة.

*و المؤمنون بخلاف هذه الحال فهم خير من المؤمنين و هذا دليل فى غاية الفساد و هو من باب قلب الحقائق و إلا فكثرة الأموال و الأولاد و حسن المنظر كثيرا ما يكون سببا لهلاك صاحبه و شقائه و شره يَعْنُونَ: فَكَيْفَ نَكُونُ وَ نَحْنُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ عَلَى بَاطِلٍ وَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ مُخْتَفُونَ مُسْتَتِرُونَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ وَ نَحْوِهَا مِنَ الدُّورِ عَلَى الْحَقِّ؟كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ:

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ}[الأَحْقَاف: 11]

وَ قَالَ قَوْمُ نُوحٍ:{أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ} [الشُّعَرَاءِ: 111]

وَ قَالَ تَعَالَى:{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}[الأَنْعَام: 53]﴿٧٣﴾

و لهذا قال تعالى:(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ)الأمم

(هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا)متاعا من أوان و فرش و بيوت و زخارف

و أحسن(وَرِءۡيٗا)مرأى و منظرا من:– غضارة العيش و سرور اللذات و حسن الصور

فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثا و رئيا و لم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم فكيف يكون هؤلاء

و هم أقل منهم و أذل معتصمين من العذاب(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ)

*و علم من هذا:– أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة و أنه من طرق الكفار(٧٤)

*لما ذكر دليلهم الباطل الدال على شدة عنادهم و قوة ضلالهم أخبر هنا:–

(قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ)أن من كان فى الضلالة بأن رضيها لنفسه و سعى فيها

(فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ)فإن الله يمده منها و يزيده فيها حبا عقوبة له على اختيارها على الهدى قال تعالى:–

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

*وَ هَذِهِ مُبَاهَلَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى هُدًى فِيمَا هُمْ فِيهِ كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى مُبَاهَلَةَ الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِ:{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[الْجُمُعَةِ: 6]

أَيِ:ادْعُوا عَلَى الْمُبْطِلِ مِنَّا وَ مِنْكُمْ بِالْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ تَدَّعُونَ أَنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمُ الدُّعَاءُ فَنَكَلُوا عَنْ ذَلِكَ

(حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ)أى:–القائلون:–(أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)

(مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ)بقتل أو غيره

(وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ)التى هى باب الجزاء على الأعمال

(فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا)

أى:فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم و أنها دعوى مضمحلة و يتيقنون أنهم أهل الشر

(وَأَضۡعَفُ)قوة و (جُندٗا)

*و لكن لا يفيدهم هذا العلم شيئا لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا فيعملون غير عملهم الأول(٧٥)

لما ذكر أنه يمد للظالمين فى ضلالهم قال:–

(وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ)هداية من فضله عليهم و رحمته و الهدى يشمل العلم النافع و العمل الصالح.

*فكل من سلك طريقا فى العلم و الإيمان و العمل الصالح زاده الله منه و سهله عليه و يسره له و وهب له أمورا أخر لا تدخل تحت كسبه و فى هذا دليل على:–

1–زيادة الإيمان و نقصه كما قاله السلف الصالح و يدل عليه قوله تعالى:–

(وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)

2–و يدل عليه أيضا الواقع فإن الإيمان قول القلب و اللسان و عمل القلب و اللسان و الجوارح و المؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت

*لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِمْدَادَ مَنْ هُوَ فِي الضَّلَالَةِ فِيمَا هُوَ فِيهِ وَ زِيَادَتَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ أَخْبَرَ بِزِيَادَةِ الْمُهْتَدِينَ هُدى كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ124وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}[التوبة]

(وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ)أى:الأعمال الباقية التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها و لا تضمحل هى الصالحات منها من صلاة و زكاة و صوم و حج و عمرة و قراءة و تسبيح و تكبير و تحميد و تهليل و إحسان إلى المخلوقين و أعمال قلبية و بدنية.

فهذه الأعمال(خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا)و أجرًا و كثيرٌ للعاملين نفعها و ردها

(وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا)مرجعًا و عاقبة

*و هذا من باب استعمال أفعل التفضيل فى غير بابه فإنه ما ثم غير الباقيات الصالحات عمل ينفع و لا يبقى لصاحبه ثوابه و لا ينجع

و مناسبة ذكر الباقيات الصالحات– و الله أعلم– أنه:–

*لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال و الولد و حسن المقام و نحو ذلك علامة لحسن حال صاحبها أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا بل العمل الذى هو عنوان السعادة و منشور الفلاح هو العمل بما يحبه الله و يرضاه ٧٦

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾
كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾
وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ
إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾
تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾
لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

(أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا)أي: أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر الذى جمع بين كفره بآيات الله

(وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا)و دعواه الكبيرة أنه سيؤتى فى الآخرة مالا و ولدا

أي: يكون من أهل الجنة هذا من أعجب الأمور فلو كان مؤمنا بالله و ادعى هذه الدعوى لسهل الأمر.

و هذه الآية–و إن كانت نازلة في كافر معين–فإنها تشمل كل كافر زعم أنه على الحق و أنه من أهل الجنة

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى4735 - عَنْ خَبَّابٍ﵁ قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا وَ كَانَ لِي عَلَى العَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ فَقَالَ لِي: لاَ أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ قَالَ: قُلْتُ:- «لَنْ أَكْفُرَ بِهِ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ»قَالَ:وَ إِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَالٍ وَ وَلَدٍ قَالَ: فَنَزَلَتْ:{أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمُ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا}﴿٧٧﴾

قال الله توبيخا له و تكذيبا: (أَطَّلَعَ)أى: أحاط علمه بــ(ٱلْغَيْبَ)حتى علم ما يكون

و أن من جملة ما يكون أنه يؤتى يوم القيامة مالا و ولدا؟

(أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا)أنه نائل ما قاله أى: لم يكن شيء من ذلك فعلم أنه متقول قائل ما لا علم له به.

و هذا التقسيم و الترديد فى غاية ما يكون من الإلزام و إقامة الحجة

فإن الذى يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة لا يخلو:–

1–إما أن يكون قوله صادرا عن علم بالغيوب المستقبلة و قد علم أن هذا لله وحده

فلا أحد يعلم شيئا من المستقبلات الغيبية إلا من أطلعه الله عليه من رسله.

2-و إما أن يكون متخذا عهدا عند الله بالإيمان به و اتباع رسله الذين عهد الله لأهله و أوزع أنهم أهل الآخرة و الناجون الفائزون.فإذا انتفى هذان الأمران:-عُلِمَ بذلك بطلان الدعوى﴿٧٨﴾

و لهذا قال تعالى:-(كَلَّاۚ) حَرْفُ رَدْعٍ لِمَا قَبْلَهَا وَ تَأْكِيدٌ لِمَا بَعْدَهَا

أى:-ليس الأمر كما زعم فليس للقائل اطلاع على الغيب لأنه كافر ليس عنده من علم الرسائل شيء و لا اتخذ عند الرحمن عهدا لكفره و عدم إيمانه و لكنه يستحق ضد ما تقوله و أن قوله مكتوب محفوظ ليجازى عليه و يعاقب

و لهذا قال:-

(سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا)أى: نزيده من أنواع العقوبات كما ازداد من الغى و الضلال﴿٧٩﴾

(وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ)ننزع عنه ما آتيناه من مال و ولد فلا يبقيان له

أى:-نرثه ماله و ولده فينتقل من الدنيا فردا بلا مال و لا أهل و لا أنصار و لا أعوان

(وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا)فى الحشر لا يصحبه مال و لا ولد. فما يجدى عليه تمنّيه و تألّيه

*فيرى من وخيم العذاب و أليم العقاب ما هو جزاء أمثاله من الظالمين﴿٨٠﴾

(وَٱتَّخَذُواْ)أى:-المشركون(مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ)يعبدونها(لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا)لتنصرهم و يعتزوا بها ﴿٨١﴾

*ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَ لَا يَكُونُ مَا طَمِعُوا فَقَالَ:-

(كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ)أَىْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا)أَىْ: بِخِلَافِ مَا ظَنُّوا فِيهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحْقَاف]قُرَنَاءَ فِي النَّارِ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَ يَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ﴿٨٢﴾

(أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ)

و هذا من عقوبة الكافرين أنهم-لما لم يعتصموا بالله و لم يتمسكوا بحبل الله بل أشركوا به و والوا أعداءه من الشياطين- سلطهم عليهم و قيضهم لهم فجعلت الشياطين

(تَؤُزُّهُمۡ)تدفعهم عن الطاعة إلى المعصية؟

(أَزّٗا)هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى{وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزُّخْرُف: 36]

*و تزعجهم إلى الكفر إزعاجا فيوسوسون لهم و يوحون إليهم و يزينون لهم الباطل و يقبحون لهم الحق فيدخل حب الباطل في قلوبهم و يتشربها

فيسعى فيه سعى المحق فى حقه فينصره بجهده و يحارب عنه و يجاهد أهل الحق فى سبيل الباطل و هذا كله جزاء له على توليه من وليه و توليه لعدوه جعل له عليه سلطان و إلا فلو آمن بالله و توكل عليه لم يكن له عليه سلطان كما قال تعالى:-

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) ٨٣

(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ)أى على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب

(إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا)أى أن لهم أياما معدودة لا يتقدمون عنها و لا يتأخرون فإِنَّمَا نُؤَخِّرُهُمْ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ مَضْبُوطٍ نمهلهم و نحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر فهُمْ صَائِرُونَ لَا مَحَالَةَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَ نَكَالِهِ

{وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبْصَارُ}[إبْرَاهِيمَ: 42]

{فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}[الطَّارِقِ: 17] {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا}[آلِ عِمْرَانَ: 178]

{نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ}[لُقْمَانَ: 24] {قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ}[إِبْرَاهِيمَ: 30] ٨٤

*يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين و المجرمين:-

(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ)

و أن المتقين له-باتقاء الشرك و البدع و المعاصى-يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين مبجلين معظمين

(وَفْدًا)وَ الْوَفْدُ:-هُمُ الْقَادِمُونَ رُكْبَانًا

*و أن مآلهم الرحمن و قصدهم المنان وفودا إليه و الوافد لا بد أن يكون فى قلبه من الرجاء و حسن الظن بالوافد إليه ما هو معلوم

فالمتقون يفدون إلى الرحمن راجين منه رحمته و عميم إحسانه و الفوز بعطاياه فى دار رضوانه

و ذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه و اتباع مراضيه و أن الله عهد إليهم بذلك الثواب على ألسنة رسله فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به واثقين بفضله٨٥

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ)

و أما المجرمون فإنهم يساقون إلى جهنم (وِرْدًا)عطاشا

و هذا أبشع ما يكون من الحالات سوقهم على وجه الذل و الصغار إلى أعظم سجن و أفظع عقوبة و هو جهنم فى حال ظمئهم و نصبهم يستغيثون فلا يغاثون و يدعون فلا يستجاب لهم و يستشفعون فلا يشفع لهم ٨٦

و لهذا قال:-

(لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ)أى: ليست الشفاعة ملكهم و لا لهم منها شيء و إنما هى لله(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)

(إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا)
هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِمَعْنَى: لَكِنْ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَ هُوَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ الْقِيَامُ بِحَقِّهَا.
*و قد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين لأنهم لم يتخذوا عنده عهدا بالإيمان به و برسله
و إلا فمن اتخذ عنده عهدا فآمن به و برسله و اتبعهم فإنه ممن ارتضاه الله و تحصل له الشفاعة كما قال:-
(وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى)
و سمى الله الإيمان به و اتباع رسله عهدا لأنه عهد في كتبه و على ألسنة رسله بالجزاء الجميل لمن اتبعهم﴿٨٧﴾

(وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا)
و هذا تقبيح و تشنيع لقول المعاندين الجاحدين الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدا كقول النصارى:-
المسيح ابن الله و اليهود:-عزير ابن الله و المشركين:-الملائكة بنات الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا﴿٨٨﴾
(لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا)عظيما وخيما﴿٨٩﴾من عظيم أمره أنه :-
(تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ)على عظمتها و صلابتها (يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ)يَتَشَقَّقْنَ فَرَقًا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ من هذا القول
(وَتَنشَقُّ)تتصدع و تنفطر(ٱلۡأَرۡضُ)منه أي:-غَضَبًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.
(وَتَخِرُّ)تندك(ٱلۡجِبَالُ هَدًّا)﴿٩٠﴾
(أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا)أي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات أن يكون منها ما ذكر.
*البخاري 6099-عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-
لَيْسَ أَحَدٌ أَوْ-لَيْسَ شَيْءٌ أَصْبَرَ(أحلم وأبعد عن الانتقام وأكثر تأخيرا عن العقوبة)عَلَى أَذًى(شيء يكرهه من قول أو فعل)سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ
إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ(ينسبون)لَهُ وَلَدًا وَ إِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ(في أبدانهم) وَ يَرْزُقُهُمْ﴿٩١﴾
و الحال أنه:-(وَمَا يَنۢبَغِي)لا يليق و لا يكون(لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا)
و ذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه و احتياجه و هو الغنى الحميد.
و الولد أيضا من جنس والده و الله تعالى لا شبيه له و لا مثل و لا سمى ﴿٩٢﴾
(إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا)أي:ذليلا منقادا غير متعاص و لا ممتنع الملائكة
و الإنس و الجن و غيرهم الجميع مماليك متصرف فيهم ليس لهم من الملك شيء
و لا من التدبير شيء فكيف يكون له ولد و هذا شأنه و عظمة ملكه؟!!﴿٩٣﴾
(لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا)لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم أهل السماوات و الأرض و أحصاهم و أحصى
أعمالهم فلا يضل و لا ينسى و لا تخفى عليه خافية﴿٩٤﴾

(وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا)أى:–لا أولاد و لا مال و لا أنصار ليس معه إلا عمله فيجازيه الله و يوفيه حسابه إن خيرا فخير و إن شرا فشر كما قال تعالى: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)﴿٩٥﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾
فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾
وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾

20-سورة طه-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾
تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ
ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾
إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)هذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان و العمل الصالح

(سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ)أن وعدهم أنه يجعل لهم

(وُدّٗا)أي: محبة و ودادا في قلوب أوليائه و أهل السماء و الأرض و إذا كان لهم في القلوب ود تيسر لهم كثير من أمورهم و حصل لهم من الخيرات و الدعوات و الإرشاد و القبول و الإمامة ما حصل

*البخارى6040 -عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَرضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-
" إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ:-إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ.فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ:-
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ(محبة العباد له و ميلهم إليه و رضاهم عنه)فِي أَهْلِ الأَرْضِ
*و إنما جعل الله لهم ودا لأنهم ودوه فوددهم إلى أوليائه و أحبابه﴿٩٦﴾

يخبر تعالى عن نعمته تعالى فقال:-(فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ)أي:-القرآن الكريم

(بِلِسَانِكَ)أي:-بلسان الرسول محمد ﷺيسر ألفاظه و معانيه ليحصل المقصود منه و الانتفاع به

(لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ) بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل و الآجل و ذكر الأسباب الموجبة للبشارة

(وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا)شديدين في باطلهم أقوياء في كفرهم فتنذرهم فتقوم عليهم الحجة و تتبين لهم المحجة فيهلك من هلك عن بينة و يحيا من حي عن بينة﴿٩٧﴾

ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم فقال:-

(وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ)من قوم نوح و عاد و ثمود و فرعون و غيرهم من المعاندين المكذبين لمَّا استمروا فى طغيانهم أهلكهم الله فليس لهم من باقية.

(هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا)صوت خفى

أى: لم يبق منهم عين و لا أثر بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين و أسمارهم عظة للمتعظين﴿٩٨﴾

20-تفسير سورة طه-مكية- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(طه) من جملة الحروف المقطعة المفتتح بها كثير من السور و ليست اسما للنبى ﷺ

مهمة القرآن و صفات من أنزله 1-8

*قال عدد من العلماء: (طه)بمعنى يَا رَجُلُ﴿١﴾

(مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ)أى:-ليس المقصود بالوحى و إنزال القرآن عليك و شرع الشريعة

(لِتَشۡقَىٰٓ)بذلك و يكون فى الشريعة :-تكليف يشق على المكلفين و تعجز عنه قوى العاملين.

و إنما الوحى و القرآن و الشرع شرعه الرحيم الرحمن و جعله موصلا للسعادة و الفلاح و الفوز و سهله غاية التسهيل و يسر كل طرقه و أبوابه و جعله غذاء للقلوب و الأرواح و راحة للأبدان فتلقته الفطر السليمة و العقول المستقيمة بالقبول و الإذعان لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا و الآخرة

*فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَهُ الْمُبْطِلُونَ بَلْ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ فَقَدْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا كَثِيرًا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-"مَنْ يُرِد اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ".

*وَ قَالَ قَتَادَةُ:{مَا أَنزلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}:-

لَا وَ اللَّهِ مَا جَعَلَهُ شَقَاءًوَ لَكِنْ جَعَلَهُ رَحْمَةً وَ نُورًا وَ دَلِيلًا إِلَى الْجَنَّةِ﴿٢﴾ و لهذا قال:-

(إِلَّا تَذۡكِرَةً) موعظة إلا ليتذكر به

(لِّمَن يَخۡشَىٰ)الله تعالى فيتذكر ما فيه من الترغيب إلى أجل المطالب فيعمل بذلك و من الترهيب عن الشقاء و الخسران فيرهب منه و يتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة التى كان مستقرا فى عقله حسنها مجملا فوافق التفصيل ما يجده في فطرته و عقله

و لهذا سماه الله(تَذۡكِرَةً)و التذكرة لشيء كان موجودا إلا أن صاحبه غافل عنه أو غير مستحضر لتفصيله

*و خص بالتذكرة من(يَخۡشَىٰ)لأن غيره لا ينتفع به و كيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة و لا نار و لا فى قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟ هذا ما لا يكون(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى 10 وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى 11 الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى)[الأعلى]﴿٣﴾

ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم فقال-

(تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى)و أنه تنزيل خالق الأرض و السماوات المدبر لجميع المخلوقات

أى فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة و التسليم و عظموه نهاية التعظيم

*و كثيرا ما يقرن بين الخلق و الأمر كما في هذه الآية و كما فى قوله(أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

و فى قوله(اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)و ذلك أنه الخالق الآمر الناهى

*فكما أنه لا خالق سواه فليس على الخلق إلزام و لا أمر و لا نهى إلا من خالقهم و أيضا

*فإن خلقه للخلق فيه التدبير القدرى الكونى و أمره فيه التدبير الشرعى الدينى

*فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة فلم يخلق شيئا عبثا فكذلك لا يأمر و لا ينهى إلا بما هو:–

عدل و حكمة و إحسان ﴿٤﴾

*فلما بين أنه الخالق المدبر الآمر الناهى أخبر عن عظمته و كبريائه فقال :–

(ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ)الذى هو أرفع المخلوقات و أعظمها و أوسعها

(ٱسۡتَوَىٰ)استواء يليق بجلاله و يناسب عظمته و جماله فاستوى على العرش و احتوى على الملك﴿٥﴾

(لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا)من ملك و إنسى و جنى و حيوان و جماد و نبات

(وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ)التراب الندى يريد ما هو أسفل الأرضين السبع.

فالجميع ملك لله تعالى عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه و تدبيره ليس لهم من الملك شيء و لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا ﴿٦﴾

(وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ الكلام الخفى

(وَأَخۡفَى)من السر الذى فى القلب و لم ينطق به أو السر ما خطر على القلب

(وَأَخۡفَى)ما لم يخطر يعلم تعالى أنه يخطر في وقته و على صفته المعنى أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء دقيقها و جليلها خفيها و ظاهرها فسواء جهرت بقولك أو أسررته فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى

*كَمَا قَالَ تَعَالَى:{قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}[الْفُرْقَانِ: 6] ﴿٧﴾

*فلما قرر كماله المطلق بعموم خلقه و عموم أمره و نهيه و عموم رحمته و سعة عظمته و علوه على عرشه و عموم ملكه و عموم علمه نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة و أن عبادته هى الحق التى يوجبها الشرع و العقل و الفطرة و عبادة غيره باطلة فقال:–

(ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ)أى لا معبود بحق و لا مألوه بالحب و الذل و الخوف و الرجاء و المحبة و الإنابة و الدعاء إلا هو (لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ) أى له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى من حسنها:–

1–أنها كلها أسماء دالة على المدح فليس فيها اسم لا يدل على المدح و الحمد

2–و من حسنها أنها ليست أعلاما محضة و إنما هى أسماء و أوصاف

3–و من حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة و أن له من كل صفة أكملها و أعمها و أجلها

4–و من حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها و يحب من يحبها و يحب من يحفظها و يحب من يبحث عن معانيها و يتعبد له بها قال تعالى (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)﴿٨﴾

*مِنْ هَاهُنَا شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام وَ كَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ الْوَحْيِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمُهُ إِيَّاهُ وَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ صِهْرِه فِي رِعَايَةِ الْغَنَمِ وَ سَارَ بِأَهْلِهِ قِيلَ: قَاصِدًا بِلَادَ مِصْرَ بَعْدَمَا طَالَتِ الْغَيْبَةُ عَنْهَا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ وَ مَعَهُ زَوْجَتُهُ فَأَضَلَّ الطَّرِيقَ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطَّوْرِ نَارًا أَيْ: ظَهَرَتْ لَهُ نَارٌ مِنْ جَانِبِ الْجَبَلِ الَّذِي هُنَاكَ عَنْ يَمِينِهِ

*يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريرى و التعظيم لهذه القصة و التفخيم لها:–

(وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴿٩﴾ إِذۡ)فى حاله التى هى مبدأ سعادته و منشأ نبوته أنـه (رَءَا نَارٗا)من بعيد و كان قد ضل الطريق و أصابه البرد و لم يكن عنده ما يتدفأ به فى سفره

مناجاة موسى لربه فى الوادى المقدس 9-16

(فَقَالَ لِأَهۡلِهِ)يُبَشِّرُهُمْ(ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ)أبصرت

(نَارٗا)و كان ذلك فى جانب الطور الأيمن

(لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ)تصطلون بهـ_دَلَّ عَلَى وُجُودِ الظَّلَامِ.

وقال{أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ}[الْقَصَصِ: 29]وَ هِ ىَ الْجَمْرُ:الَّذِى مَعَهُ لَهَبٌ{لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}[الْقَصَصِ: 29]دَلَّ عَلَى وُجُودِ الْبَرْدِ

(أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى)أى:من يهدينى الطريق_دَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَاهَ عَنِ الطَّرِيقِ

*و كان مطلبه النور الحسى و الهداية الحسية

فوجد ثَمَّ النور المعنوى:–نور الوحى الذى تستنير به الأرواح و القلوب

*و الهداية الحقيقية:–هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم

فحصل له أمر لم يكن فى حسابه و لا خطر بباله﴿١٠﴾

(فَلَمَّآ أَتَىٰهَا)أى: النار التى آنسها من بعيد و كانت – فى الحقيقة– نورا و هى نار تحرق و تشرق

و يدل على ذلك قوله ﷺ:–«حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره »

فلما وصل إليها (نُودِيَ)منها(يَٰمُوسَىٰٓ)أى: ناداه الله كما قال:–(وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا)﴿١١﴾

(إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ)أخبره أنه ربه و أمره أن يستعد و يتهيأ لمناجاته و يهتم لذلك و يلقى نعليه

*و قد قال كثير من المفسرين:–إن الله أمره أن يلقى نعليه لأنهما من جلد حمار »فالله أعلم بذلك.

(إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ)المطهر المعظم

(طُوٗى)و لو لم يكن من تقديسه إلا أن الله اختاره لمناجاته كليمه موسى لكفى ﴿١٢﴾

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا
وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ
﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾
قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾
وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾
وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

(وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ)تخيرتك و اصطفيتك من الناس

و هذه أكبر نعمة و منة أنعم الله بها عليه تقتضى من الشكر ما يليق بها

و لهذا قال:-

(فَٱسْتَمِعْ)ألق سمعك(لِمَا يُوحَىٰٓ)إليك فإنه حقيق بذلك لأنه أصل الدين و مبدأه و عماد الدعوة الإسلامية

ثم بين الذى يوحيه إليه بقوله:-

(إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠)أى: الله المستحق الألوهية المتصف بها

لأنه الكامل فى أسمائه و صفاته المنفرد بأفعاله الذى لا شريك له و لا مثيل و لا كفو و لا سمى

*هَذَا أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

(فَٱعْبُدْنِي)بجميع أنواع العبادة ظاهرها و باطنها أصولها و فروعها

(وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ)صَلِّ لِتَذْكُرَنِي وَ قِيلَ: مَعْنَاهُ: وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ عِنْدَ ذِكْرِكَ لِي.وَ يَشْهَدُ لِهَذَا الثَّانِي:-

* أحمد:-12909-عَنْ أَنَسٍ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ أَوْ غَفَلَ عَنْهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}[طه: 14]

*البخارى 597 -عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-

مَنْ نَسِيَ صَلاَةً فَلْيُصَلِّ إِذَا ذَكَرَهَا لاَ كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى}[طه: 14]

*ثم خص الصلاة بالذكر و إن كانت داخلة فى العبادة لفضلها و شرفها و تضمنها عبودية القلب و اللسان و الجوارح.

(لِذِكۡرِيٓ)اللام للتعليل أى:–

أقم الصلاة لأجل ذكرك إياى لأن ذكره تعالى أجل المقاصد و هو عبودية القلب و به سعادته فالقلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خير و قد خرب كل الخراب فشرع الله للعباد أنواع العبادات التى المقصود منها إقامة ذكره و خصوصا الصلاة.

قال الله تعالى:(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ

أى:ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء و المنكر و هذا النوع يقال له توحيد الألوهية و توحيد العبادة فالألوهية وصفه تعالى و العبودية وصف عبده.

(إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ) أى: لا بد من وقوعها

(أَكَادُ أُخۡفِيهَا)أى:عن نفسى كما فى بعض القراءات كقوله تعالى:-(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ

*وَ قَالَ السُّدِّيُّ: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أهل السموات وَ الْأَرْضِ إِلَّا قَدْ أَخْفَى اللَّهُ عَنْهُ عِلْمَ السَّاعَةِ وَ هِىَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ:-"إِنِّي أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسى"يَقُولُ:كَتَمْتُهَا عَنِ الْخَلَائِقِ حَتَّى لَوِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَكْتُمَهَا مِنْ نَفْسى لَفَعَلْتُ.

*قُلْتُ: وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى:-{قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَإِلا اللَّهُ} [النَّمْلِ: 65]

وَ قَالَ:{ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً}[الْأَعْرَافِ: 187]أَيْ: ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتُ وَ الْأَرْضُ.

و قال:(وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلهم فلا يعلمها ملك مقرب و لا نبى مرسل

و الحكمة فى إتيان الساعة (لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ)من الخير و الشر فهى الباب لدار الجزاء

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)

(فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا)أى:–عن الإيمان بالساعة و الجزاء و العمل لذلك

(مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا)من كان كافرا بها غير معتقد لوقوعها يسعى فى الشك فيها و التشكيك و يجادل فيها بالباطل و يقيم من الشبه ما يقدر عليه متبعا فى ذلك هواه ليس قصده الوصول إلى الحق و إنما قصاراه اتباع هواه فإياك أن تصغى إلى من هذه حاله أو تقبل شيئا من أقواله وأعماله الصادرة عن الإيمان بها و السعى لها سعيها و إنما حذَّر الله تعالى عمن هذه حاله:–

1–لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته و تدجيله

2–و كون النفوس مجبولة على التشبه و الاقتداء بأبناء الجنس

*و فى هذا تنبيه و إشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل يصد عن الإيمان الواجب أو عن كماله أو يوقع الشبهة في القلب و عن النظر في الكتب المشتملة على ذلك

*و ذكر فى هذا الإيمان به وعبادته و الإيمان باليوم الآخر لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان و ركن الدين و إذا تمت تم أمر الدين ونقصه أو فقده بنقصها أو نقص شيء منها.

و هذه نظير قوله تعالى فى الإخبار عن ميزان سعادة الفرق الذين أوتوا الكتاب و شقاوتهم:–

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ

(فَتَرْدَىٰ)فتهلك و تشقى إن اتبعت طريق من يصد عنها قَالَ اللَّهُ:{وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}[اللَّيْلِ: 11] ﴿١٦﴾

*لما بين الله لموسى أصل الإيمان أراد أن يبين له و يريه من آياته ما يطمئن به قلبه و تقر به عينه و يقوى إيمانه بتأييد الله له على عدوه فقال:–

معجزات موسى 17-36

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ)

هذا مع علمه تعالى و لكن لزيادة الاهتمام فى هذا الموضع أخرج الكلام بطريق الاستفهام﴿١٧﴾

فـ(قَالَ)موسى:–(هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا)

ذكر فيها هاتين المنفعتين منفعة لجنس الآدمى و هو أنه يعتمد عليها فى قيامه و مشيه فيحصل فيها معونة.

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي)

و منفعة للبهائم و هو أنه كان يرعى الغنم فإذا رعاها فى شجر الخبط و نحوه هش بها أى:–

ضرب الشجر ليتساقط ورقه فيرعاه الغنم (ليس المراد بالهش :التلويح بالعصا للزجر)

هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام الذى من آثاره:–

1–حسن رعاية الحيوان البهيم

2–و الإحسان إليه دل على عناية من الله له و اصطفاء و تخصيص تقتضيه رحمة الله و حكمته.

(وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ)مقاصد (أُخْرَىٰ)غير هذين الأمرين

و من أدب موسى عليه السلام أن الله لما سأله عما فى يمينه و كان السؤال محتملا عن السؤال عن عينها أو منفعتها أجابه بعينها و منفعتها ﴿١٨﴾

فقال الله له:–

(قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ)انقلبت بإذن الله ثعبانا عظيما فولى موسى هاربا خائفا و لم يعقب

*صَارَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةً عَظِيمَةً ثُعْبَانًا طَوِيلًا يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً سَرِيعَةً فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحَيَّاتِ حَرَكَةً وَ لَكِنَّهُ صَغِيرٌ فَهَذِهِ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ وَ فِي غَايَةِ سُرْعَةِ الْحَرَكَةِ

(تَسْعَىٰ)تَمْشِي وَ تَضْطَرِبُ.

*و فى وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده و هو أن يظن أنها تخييل لا حقيقة فكونها تسعى يزيل هذا الوهم ﴿٢٠﴾

فـ(قَالَ)الله لموسى(خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ)أى ليس عليك منها بأس

(سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا)هيئتها و صفتها (ٱلۡأُولَىٰ)إذ كانت عصا فامتثل موسى أمر الله إيمانا به و تسليما فأخذها فعادت عصاه التي كان يعرفها هذه –آية﴿٢١﴾

ثم ذكر الآية الأخرى فقال :–

(وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ)أى أدخل يدك فى جيبك و ضم عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان

(تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ)بياضا ساطعا(مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ)غير عيب و لا برص(ءَايَةً أُخۡرَىٰ)قال الله:-

{وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [القَصَص: 32] ﴿٢٢﴾

(لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى)أى فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى و من خروج اليد بيضاء للناظرين لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى الدالة على صحة رسالتك و حقيقة ما جئت به فيطمئن قلبك و يزداد علمك و تثق بوعد الله لك بالحفظ و النصرة و لتكون حجة و برهانا لمن أرسلت إليهم ﴿٢٣﴾

*لما أوحى الله إلى موسى و نبأه و أراه الآيات الباهرات أرسله إلى فرعون ملك مصر فقال:–

(ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ)أى:تمرد و زاد على الحد فى الكفر و الفساد و العلو فى الأرض و القهر للضعفاء حتى إنه ادعى الربوبية و الألوهية – قبحه الله–

أى:–و طغيانه سبب لهلاكه

و لكن من رحمة الله و حكمته و عدله أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة بالرسل فحينئذ علم موسى ﷺأنه تحمل حملا عظيما حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد الذى ليس له منازع فى مصر من الخلق و موسى ﷺ وحده و قد جرى منه ما جرى من القتل فامتثل أمر ربه و تلقاه بالانشراح و القبول و سأله المعونة و تيسير الأسباب التى هى من تمام الدعوة ﴿٢٤﴾

فــ(قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ)و سِعْ و أفسح(لِي صَدۡرِي) لأتحمل الأذى القولى و الفعلى و لا يتكدر قلبى بذلك و لا يضيق صدرى فإن الصدر إذا ضاق لم يصلح صاحبه لهداية الخلق و دعوتهم قال الله لنبيه محمد ﷺ:–

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}

و عسى الخلق يقبلون الحق مع اللين و سعة الصدر و انشراحه عليهم ﴿٢٥﴾

(وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي)أى: سهل على كل أمر أسلكه و كل طريق أقصده فى سبيلك و هون على ما أمامى من الشدائد و من تيسير الأمر أن ييسر للداعى أن يأتى جميع الأمور من أبوابها و يخاطب كل أحد بما يناسب له

و يدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله﴿٢٦﴾

(وَٱحۡلُلۡ)و أطلق(عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي)بفصيح المنطق ﴿٢٧﴾

(يَفۡقَهُواْ)ليفهموا(قَوۡلِي)

*و كان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال الله عنه أنه قال:-(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا)

فسأل الله أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة و المراجعة و البيان عن المعاني

*وَ ذَلِكَ لِمَا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ اللَّثَغِ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ التَّمْرَةَ وَ الْجَمْرَةَ فَأَخَذَ الْجَمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ وَ مَا سَأَلَ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ بَلْ بِحَيْثُ يَزُولُ الْعَيُّ وَ يَحْصُلُ لَهُمْ فَهْمُ مَا يُرِيدُ مِنْهُ وَ هُوَ قَدْرُ الْحَاجَةِ وَ لَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ لَزَالَ وَ لَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَسْأَلُونَ إِلَّا بِحَسْبِ الْحَاجَةِ وَ لِهَذَا بَقِيَتْ بَقِيَّةٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ:-{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ}[الزُّخْرُف 52]أَيْ: يُفْصِحُ بِالْكَلَامِ.

*وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:-شَكَا مُوسَى إِلَى رَبِّهِ مَا يَتَخَوَّفُ من آل فرعون فِي القتيل و عقدة لسانه فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ وَ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ يَكُونُ لَهُ رِدْءًا وَ يَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصِحُ بِهِ لِسَانُهُ فَآتَاهُ سُؤْلَهُ فَحَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ﴿٢٨﴾

(وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا)معينا(مِّنۡ أَهۡلِي)يعاونني و يؤازرني و يساعدني على من أُرْسلت إليهم و سأل أن يكون من أهله لأنه من باب البر و أحق ببر الإنسان قرابته ﴿٢٩﴾

*ثم عينه بسؤاله فقال:–

(هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي)قوني به و شد به ظهري قال الله (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا)﴿٣١﴾

(وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي)أي في النبوة بأن تجعله نبيا رسولا كما جعلتني ﴿٣٢﴾

ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال :–

(كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا)

علم عليه الصلاة و السلام أن مدار العبادات كلها و الدين على ذكر الله فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان و يتعاونان على البر و التقوى فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح و التهليل و غيره من أنواع العبادات ﴿٣٤﴾

(إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا)

فِي اصْطِفَائِكَ لَنَا وَ إِعْطَائِكَ إِيَّانَا النُّبُوَّةَ وَ بَعْثَتِكَ لَنَا إِلَى عَدُوِّكَ فِرْعَوْنَ فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ.

*تعلم حالنا و ضعفنا و عجزنا و افتقارنا إليك في كل الأمور و أنت أبصر بنا من أنفسنا و أرحم فمن علينا بما سألناك و أجب لنا فيما دعوناك﴿٣٥﴾

تذكير الله لموسى بنعمه قبل النبوة 37-41

فقال الله:–(قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ)أُعْطيت(سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ)جميع ما طلبت فـــــ:–

1-سنشرح صدرك 2-و نيسر أمرك 3-و نحل عقدة من لسانك يفقهوا قولك 4-و نشـد عضدك بأخيك

(وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)

و هذا السؤال من موسى ﷺيدل على كمال معرفته بالله و كمال فطنته و معرفته للأمور و كمال نصحه و ذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق خصوصا إذا كان المدعو من أهل العناد و التكبر و الطغيان يحتاج إلى سعة صدر وحلم تام على ما يصيبه من الأذى و لسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريده و يقصده بل الفصاحة و البلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون لكثرة المراجعات و المراوضات ولحاجته لتحسين الحق و تزيينه بما يقدر عليه ليحببه إلى النفوس و إلى تقبيح الباطل و تهجينه لينفر عنه و يحتاج مع ذلك أيضا أن يتيسر له أمره فيأتى البيوت من أبوابها و يدعو إلى سبيل الله بالحكمة و الموعظة الحسنة و المجادلة بالتى هى أحسن يعامل الناس كلا بحسب حاله و تمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان و وزراء يساعدونه على مطلوبه لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر فلذلك سأل ﷺهذه الأمور فأعطيها

*و إذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق رأيتهم بهذه الحال بحسب أحوالهم خصوصا خاتمهم و أفضلهم محمد ﷺفإنه فى الذروة العليا من كل صفة كمال و له من شرح الصدر و تيسير الأمر و فصاحة اللسان و حسن التعبير و البيان و الأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم ما ليس لغيره ﴿٣٦﴾

*لما ذكر منته على عبده و رسوله موسى بن عمران في الدين و الوحى و الرسالة و إجابة سؤاله ذكر نعمته عليه وقت التربية و التنقلات في أطواره فقال:-

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ)حيث ألهمنا أمك أن تقذفك فى التابوت وقت الرضاع خوفا من فرعون لأنه أمر بذبح أبناء بنى إسرائيل فأخفته أمه و خافت عليه خوفا شديدا فقذفته فى التابوت

ثم قذفته فى اليم أى:-شط نيل مصر فأمر الله اليم أن يلقيه فى الساحل و قيض أن يأخذه أعدى الأعداء لله و لموسى و يتربى فى أولاده و يكون قرة عين لمن رآه ﴿٣٧﴾

و لهذا قال:-

إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي
وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ
عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ
فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾
ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ
يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ
إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ
قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ
عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾
قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾

(إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ)

*هَذِهِ إِجَابَةٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ مُوسَى ﷺ فِيمَا سَأَلَ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ تَذْكِيرٌ لَهُ بِنِعَمِهِ السَّالِفَةِ عَلَيْهِ فِيمَا كَانَ أَلْهَمَ أُمَّهُ حِينَ كَانَتْ تُرْضِعُهُ وَ تَحْذَرُ عَلَيْهِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ أَنْ يَقْتُلُوهُ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ وُلِدَ فِي السَّنَةِ الَّتِي يَقْتُلُونَ فِيهَا الْغِلْمَانَ.

فَاتَّخَذَتْ لَهُ تَابُوتًا فَكَانَتْ تُرْضِعُهُ ثُمَّ تَضَعُهُ فِيهِ وَ تُرْسِلُهُ فِي الْبَحْرِ-وَ هُوَ النِّيلُ-وَ تُمْسِكُهُ إِلَى مَنْزِلِهَا بِحَبْلٍ فذهبت مرة لتربطه فانفلت منها وَ ذَهَبَ بِهِ الْبَحْرُ فَحَصَلَ لَهَا مِنَ الْغَمِّ وَ الْهَمِّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ:-

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا) [القَصَص: 10]

فَذَهَبَ بِهِ الْبَحْرُ إِلَى دَارِ فِرْعَوْنَ (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) [القَصَص: 8]

أَيْ قَدَرًا مَقْدُورًا مِنَ اللَّهِ حَيْثُ كَانُوا هُمْ يَقْتُلُونَ الْغِلْمَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذَرًا مِنْ وُجُودِ مُوسَى فَحَكَمَ اللَّهُ -وَ لَهُ السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ وَ الْقُدْرَةُ التَّامَّةُ-أَلَّا يُرَبَّى إِلَّا عَلَى فِرَاشِ فِرْعَوْنَ وَ يُغَذَّى بِطَعَامِهِ وَ شَرَابِهِ مَعَ مَحَبَّتِهِ وَ زَوْجَتِهِ لَهُ وَ لِهَذَا قَالَ:-(يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ)

(وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي)أَيْ: عِنْدَ عَدُوِّكَ جَعَلْتُهُ يُحِبُّكَ فكل من رآه أحبه

(وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ)تُرَبَّى بِعَيْنِ اللَّهِ_و لتتربى على نظرى و فى حفظى و كلاءتى

و أى نظر و كفالة أجلّ و أكمل من ولاية البر الرحيم القادر على إيصال مصالح عبده و دفع المضار عنه؟!

فلا ينتقل من حالة إلى حالة إلا و الله تعالى هو الذى دبّر ذلك لمصلحة موسى ﴿٣٩﴾

(إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ)

و من حسن تدبيره أن موسى لما وقع في يد عدوه قلقت أمه قلقا شديدا و أصبح فؤادها فارغا

و كادت تخبر به لولا أن الله ثبتها و ربط على قلبها

ففي هذه الحالة حرم الله على موسى المراضع فلا يقبل ثدى امرأة قط ليكون مآله إلى أمه فترضعه

و يكون عندها مطمئنة ساكنة قريرة العين فجعلوا يعرضون عليه المراضع فلا يقبل ثديا.

*قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجل:(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ)فجاءت أُخْتُهُ وَ قَالَتْ(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)[القَصَص: 12]تَعْرِي هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ تُرْضِعُهُ لَكُمْ بِالْأُجْرَةِ؟

*فَذَهَبَتْ بِهِ وَ هُمْ مَعَهَا إِلَى أُمِّهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ ثَدْيَهَا فَقبِلَهُ فَفرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا وَ اسْتَأْجَرُوهَا عَلَى إِرْضَاعِهِ فَنَالَهَا بِسَبَبِهِ سَعَادَةٌ وَ رِفْعَةٌ وَ رَاحَةٌ فِي الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ أَغْنَمُ وَ أَجْزَلُ؛

(فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسًا)

و هو القبطى لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها وجد رجلين يقتتلان واحد من شيعة موسى و الآخر من

عدوه قبطى(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)

فدعا الله و سأله المغفرة فغفر له ثم فر هاربا لما سمع أن الملأ طلبوه يريدون قتله.

(فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ)فنجاه الله من الغم من عقوبة الذنب و من القتل

*فَفَرَّ مِنْهُمْ هَارِبًا حَتَّى وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَ قَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ:-(لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[القَصَص: 25]

(وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ)

اختبرناك و بلوناك فوجدناك مستقيما فى أحوالك_نقلناك فى أحوالك و أطوارك حتى وصلت إلى ما وصلت إليه

(فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ)

حين فر هاربا من فرعون و ملئه حين أرادوا قتله فتوجه إلى مدين و وصل إليها و تزوج هناك و مكث عشر سنين

أو ثمان سنين

(ثُمَّ جِئۡتَ)من «مدين»(عَلَىٰ قَدَرٖ)فى الموعد الذى قدَّرناه لإرسالك مجيئًا موافقًا لقدر الله و إرادته(يَٰمُوسَىٰ)

جئت مجيئا قد مضى به القدر و علمه الله و أراده في هذا الوقت و هذا الزمان

و هذا المكان ليس مجيئك اتفاقا من غير قصد و لا تدبير منا و هذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه

موسى عليه السلام (٤٠)

و لهذا قال: (وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي)أى: أجريت عليك صنائعى و نعمى و حسن عوائدى و تربيتي لتكون لنفسى

حبيبا مختصا و تبلغ في ذلك مبلغا لا يناله أحد من الخلق إلا النادر منهم

و إذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين و أراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ يبذل غاية جهده و يسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم

و ما تحسبه يفعل بمن أراده لنفسه و اصطفاه من خلقه؟

*البخارى4736 -عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:-
التَقَى آدَمُ وَ مُوسَى فَقَالَ مُوسَى لِآدَمَ: آنْتَ الَّذِى أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَ أَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ؟
قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَ اصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ وَ أَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ؟
قَالَ: نَعَمْ قَالَ: فَوَجَدْتَهَا كُتِبَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي قَالَ: نَعَمْ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى "﴿٤١﴾

*لما امتن الله على موسى بما امتن به من النعم الدينية و الدنيوية قال له:—(ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ)هارون

(بِـَٔايَٰتِى)أى:الآيات التي مني الدالة على الحق و حسنه و قبح الباطل كاليد و العصا و نحوها في تسع آيات إلى فرعون و ملئه

(وَلَا تَنِيَا)لا تفترا و لا تكسلا(فِى ذِكْرِى)أى:—عن مداومة ذكرى بل استمرًا عليه و الزماه كما وعدتما بذلك (كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا 33 وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا)فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور يسهلها و يخفف حملها﴿٤٢﴾

(ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ)أى: جاوز الحد فى كفره و طغيانه و ظلمه و عدوانه﴿٤٣﴾

(فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا)سهلا لطيفا برفق و لين و أدب فى اللفظ من دون فحش و لا صلف و لا غلظة فى المقال أو فظاظة فى الأفعال

*كَمَا قَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ عِنْدَ قَوْلِهِ:(فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا):-يَا مَنْ يَتَحَبَّبُ إِلَى مَنْ يُعَادِيهِ فَكَيْفَ بِمَنْ يَتَوَلَّاهُ وَ يُنَادِيهِ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى:(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[النَّحْلِ: 125]﴿٤٤﴾

(لَّعَلَّهُۥ)بسبب القول اللين(يَتَذَكَّرُ)ما ينفعه فيأتيه

(أَوْ يَخْشَىٰ)ما يضره فيتركه فإن القول اللين داع لذلك و القول الغليظ منفر عن صاحبه

كقوله(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)[الفرقان: 62]

و قد فسر القول اللين في قوله:-(فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى* وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)

فإن فى هذا الكلام من لطف القول و سهولته و عدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل

*فإنه أتى بـ« هل » الدالة على العرض و المشاورة التى لا يشمئز منها أحد و دعاه إلى التزكى و التطهر من الأدناس التى أصلها التطهر من الشرك الذى يقبله كل عقل سليم و لم يقل«أزكيك »بل قال« تزكى»أنت بنفسك

*ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه و أنعم عليه بالنعم الظاهرة و الباطنة التي ينبغي مقابلتها بشكرها و ذكرها فقال(وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)

فلمَّا لم يقبل هذا الكلام اللين الذى يأخذ حسنه بالقلوب علم أنه لا ينجع فيه تذكير فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر ﴿٤٥﴾

(قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ)أى يبادرنا بالعقوبة و الإيقاع بنا قبل أن تبلغه رسالاتك و نقيم عليه الحجة

(أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ)أى يتمرد عن الحق و يطغى بملكه و سلطانه و جنده و أعوانه﴿٤٦﴾

(قَالَ لَا تَخَافَآۖ)أن يفرط عليكما

(إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ)

أى أنتما بحفظى و رعايتى أسمع أقوالكما و أرى جميع أحوالكما فلا تخافا منه فزال الخوف عنهما و اطمأنت قلوبهما بوعد ربهما﴿٤٧﴾

(فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ)

1–دعوته إلى الإسلام(إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ)

2–(فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ)و تخليص هذا الشعب الشريف بنى إسرائيل–من قيده و تعبيده لهم ليتحرروا و يملكوا أمرهم و يقيم فيهم موسى شرع الله و دينه.

(قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ)تدل على صدقنا

(فَأَلْقَى موسى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ*وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)إلى آخر ما ذكر الله عنهما

(وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ)

أى من اتبع الصراط المستقيم و اهتدى بالشرع المبين حصلت له السلامة فى الدنيا و الآخرة ﴿٤٨﴾

(إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ)أى خبر من عند الله لا من عند أنفسنا

(أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ)أي كذب بأخبار الله و أخبار رسله

(وَتَوَلَّىٰ)عن الانقياد لهم و اتباعهم و هذا فيـه :–

1–الترغيب لفرعون بالإيمان و التصديق و اتباعهما

2–و الترهيب من ضد ذلك

و لكن لم يفد فيه هذا الوعظ و التذكير فأنكر ربه و كفر و جادل في ذلك ظلما و عنادا﴿٤٩﴾

(قَالَ)فرعون لموسى على وجه الإنكار:

(فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ)فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح

الحوار بين موسى و فرعون 49-55

فــ(قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ)أي:ربنا الذي خلق جميع المخلوقات و أعطى كل مخلوق خلقه اللائق به الدال على حسن صنعه من خلقه من كبر الجسم و صغره و توسطه و جميع صفاته

(ثُمَّ هَدَىٰ)كل مخلوق إلى ما خلقه له

و هذه الهداية العامة المشاهدة فى جميع المخلوقات فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع و فى دفع المضار عنه حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به على ذلك.

و هذا كقوله تعالى:(الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ)

*فالذى خلق المخلوقات و أعطاها خلقها الحسن الذى لا تقترح العقول فوق حسنه و هداها لمصالحها هو الرب على الحقيقة

*فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودا و هو مكابرة و مجاهرة بالكذب

*فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك

و لهذا لما لم يمكن فرعون أن يعاند هذا الدليل القاطع عدل إلى المشاغبة و حاد عن المقصود فقال لموسى:-﴿٥٠﴾

(قَالَ فَمَا بَالُ)ما شأن و ما خبر(ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ) ؟

و كيف وصلت بهم الحال و قد سبقونا إلى الإنكار و الكفر و الظلم و العناد و لنا فيهم أسوة؟﴿٥١﴾

فقال موسى:-

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا
وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾
وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾
فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٍ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدًا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾
قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾
فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم
بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفًّاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾

(قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ)

أى: قد أحصى أعمالهم من خير و شر و كتبه فى كتاب و هو اللوح المحفوظ و أحاط به علما و خبرا

فـــ(لَّا يَضِلُّ رَبِّي)عن شيء منها(وَلَا يَنسَى)ما علمه منها.

و مضمون ذلك:-

أنهم قدموا إلى ما قدموا و لاقوا أعمالهم و سيجازون عليها فلا معنى لسؤالك و استفهامك يا فرعون عنهم فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت و لكم ما كسبتم

فإن كان الدليل الذى أوردناه عليك و الآيات التى أريناكها قد تحققت صدقها و يقينها و هو الواقع فانقد إلى الحق و دع عنك الكفر والظلم و كثرة الجدال بالباطل و إن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة فالطريق مفتوح و باب البحث غير مغلق فرد الدليل بالدليل و البرهان بالبرهان

و لن تجد لذلك سبيلا ما دام الملوان. كيف و قد أخبر الله عنه أنه جحدها مع استيقانها

كما قال تعالى:-(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) و قال موسى:-

(لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ) فعلم أنه ظالم فى جداله قصده العلو فى الأرض﴿٥٢﴾

ثم استطرد فى هذا الدليل القاطع بذكر كثير من نعمه و إحسانه الضرورى فقال:-

(ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا)فراشا بحالة تتمكنون من السكون فيها و القرار و البناء و الغراس و إثارتها للازدراع و غيره و ذللها لذلك و لم يجعلها ممتنعة عن مصلحة من مصالحكم.

*وَ فِي قِرَاءَةِ بَعْضِهِمْ "مَهْدًا" أَيْ:-قَرَارًا تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا وَ تَقُومُونَ وَ تَنَامُونَ عَلَيْهَا وَ تُسَافِرُونَ عَلَى ظَهْرِهَا

(وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا)كَمَا قَالَ تَعَالَى:-{وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}[الأَنْبِيَاءِ: 31]

أى:نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض و من قطر إلى قطر حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون و ينتفعون بأسفارهم أكثر مما ينتفعون بإقامتهم.

(وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ)أى:–أنزل المطر (فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) و أنبت بذلك جميع أصناف النوابت على اختلاف أنواعها و تشتت أشكالها و تباين أحوالها فساقه و قدره و يسره رزقا لنا و لأنعامنا و لولا ذلك لهلك من عليها من آدمى و حيوان ﴿٥٣﴾ و لهذا قال:–

(كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ)و سياقها على وجه الامتنان ليدل ذلك على أن الأصل فى جميع النوابت الإباحة فلا يحرم منهم إلا ما كان مضرا كالسموم و نحوه.

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى)لذوى

(ٱلنُّهَىٰ)العقول الرزينة و الأفكار المستقيمة على فضل الله و إحسانه و رحمته و سعة جوده و تمام عنايته و على أنه الرب المعبود المالك المحمود الذى لا يستحق العبادة سواه و لا الحمد و المدح و الثناء إلا من امتن بهذه النعم و على أنه على كل شيء قدير

فكما أحيا الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى.

و خص الله أولى النهى بذلك لأنهم المنتفعون بها الناظرون إليها نظر اعتبار

و أما من عداهم فإنهم بمنزلة البهائم السارحة و الأنعام السائمة لا ينظرون إليها نظر اعتبار و لا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها بل حظهم حظ البهائم يأكلون و يشربونو قلوبهم لاهيةو أجسامهم معرضة.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)﴿٥٤﴾

و لما ذكر كرم الأرض و حسن شكرها لما ينزله الله عليها من المطر و أنها بإذن ربها تخرج النبات المختلف الأنواع أخبر:–

(۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ)إذا متنا فدفنا فيها(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ)

فكما أوجدنا منها من العدم و قد علمنا ذلك و تحققناه فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا ليجازينا بأعمالنا التى عملناها عليها.

و هذان دليلان على الإعادة عقليان واضحان:–

1–إخراج النبات من الأرض بعد موتها 2–و إخراج المكلفين منها في إيجادهم.

{يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا}[الإِسْرَاءِ: 52] وَ هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:-

{قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} [الأَعْرَافِ: 25] ﴿٥٥﴾

المبارزة بين موسى و سحرة فرعون 56-76

(وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا)

يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات و العبر و القواطع جميع أنواعها العيانية و الأفقية و النفسية فما استقام و لا ارعوى و إنما كذب و تولى

(فَكَذَّبَ)الخبر(وَأَبَىٰ)و تولى عن الأمر و النهى و جعل الحق باطلا و الباطل حقا و جادل بالباطل ليضل الناس

*كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[النَّمْلِ: 14]﴿٥٦﴾

فـــ(قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ)

زعم أن هذه الآيات التى أراه إياها موسى سحر و تمويه المقصود منها إخراجهم من أرضهم و الاستيلاء عليها ليكون كلامه مؤثرا فى قلوب قومه فإن الطباع تميل إلى أوطانها و يصعب عليها الخروج منها و مفارقتها.

فأخبرهم أن موسى هذا قصده ليبغضوه و يسعوا فى محاربته ﴿٥٧﴾

(فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ)مثل سحرك فأمهلنا

(فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا)

(سُوٗى)مستو علمنا و علمك به_مكانا مستويا معتدلا ليتمكن من رؤية ما فيه﴿٥٨﴾

فــ(قَالَ)موسى:-(مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ)و هو عيدهم الذى يتفرغون فيه و يقطعون شواغلهم

(وَأَن يُحۡشَرَ)يجمع(ٱلنَّاسُ) كلهم(ضُحٗى)فى وقت الضحى

و إنما سأل موسى ذلك لأن يوم الزينة و وقت الضحى فيه يحصل فيه من كثرة الاجتماع و رؤية الأشياء على حقائقها ما لا يحصل فى غيره ﴿٥٩﴾

(فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ)أى:-

جميع ما يقدر عليه مما يكيد به موسى فأرسل فى مدائنه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم

و كان السحر إذ ذاك متوفرا و علمه علما مرغوبا فيه فجمع خلقا كثيرا من السحرة كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}[يونس: 79]

(ثُمَّ أَتَىٰ)كل منهما للموعد و اجتمع الناس للموعد فكان الجمع حافلا حضره الرجال و النساء و الملأ و الأشراف و العوام و الصغار و الكبار و حضوا الناس على الاجتماع و قالوا للناس:

(هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)

اجْتَمَعَ النَّاسُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَ هُوَ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ جَلَسَ فِرْعَوْنُ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ وَ اصْطَفَّ لَهُ أَكَابِرُ دَوْلَتِهِ وَ وَقَفَتْ الرَّعَايَا يُمْنَةً وَ يُسْرَةً وَأَقْبَلَ مُوسَى عليه السلام يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَاهُ وَ مَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ وَ وَقَفَ السَّحَرَةُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ صُفُوفًا وَ هُوَ يُحَرِّضُهُمْ وَ يَحُثُّهُمْ وَ يُرَغِّبُهُمْ فِي إِجَادَةِ عَمَلِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَ يَتَمَنَّوْنَ عَلَيْهِ وَ هُوَ يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ فَيَقُولُونَ:-{أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ41 قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}[الشُّعَرَاءِ]﴿٦٠﴾

فحين اجتمعوا من جميع البلدان وعظهم موسى عليه السلام و أقام عليهم الحجة (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ):-

(وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا)تختلقوا(عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا)

لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم و تغالبون الحق و تفترون على الله الكذب

(فَيُسْحِتَكُم)فيستأصلكم(بِعَذَابٍ) من عنده

(وَقَدْ خَابَ)سعى و افتراء(مَنِ ٱفْتَرَىٰ)كذب على الله

فلا تدركون ما تطلبون من النصر و الجاه عند فرعون و ملائه و لا تسلمون من عذاب الله و كلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب.

لا جرم ارتفع الخصام و النزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى و ارتبكوا و لعل من جملة نزاعهم الاشتباه في موسى هل هو على الحق أم لا؟

و لكن هم إلى الآن ما تم أمرهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)(٦١)

(فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم)تَشَاجَرُوا فِيمَا(بَيْنَهُمْ)فَقَائِلٌ يَقُولُ:-لَيْسَ هَذَا بِكَلَامِ سَاحِرٍ إِنَّمَا هَذَا كَلَامُ نَبِيٍّ. وَ قَائِلٌ يَقُولُ: بَلْ هُوَ سَاحِرٌ. وَ قِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

(وَأَسَرُّوا)فحينئذ أسروا فيما بينهم(ٱلنَّجْوَىٰ)و أنهم يتفقون على مقالة واحدة لينجحوا في مقالهم و فعالهم و ليتمسك الناس بدينهم و النجوى التي أسروها (٦٢)فسرها بقوله:-

(قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا) كمقالة فرعون السابقة

*فإما أن يكون ذلك توافقا من فرعون و السحرة على هذه المقالة من غير قصد

*و إما أن يكون تلقينا منه لهم مقالته التي صمم عليها و أظهرها للناس

*اعراب(لَسَٰحِرَٰنِ):-

الام بمعنى (إلا) و ساحران خبر المبتدأ مرفوع و علامة رفعه الألف لأنه مثنى و الجملة في محل نصب مقول القول

*و زادوا على قول فرعون أن قالوا:-

(وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ)طريقة السحر

حسدكم عليها و أراد أن يظهر عليكم ليكون له الفخر و الصيت و الشهرة و يكون هو المقصود بهذا العلم الذى أشغلتم زمانكم فيه و يذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه و ما يتبع ذلك من الرياسة

و هذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد في مغالبته (٦٣)و لهذا قالوا:-

(فَأَجْمِعُوا)أظهروا(كَيْدَكُمْ)دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه متناصرين متفقا رأيكم و كلمتكم

(ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ)ليكون أمكن لعملكم و أهيب لكم فى القلوب و لئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل

(وَقَدۡ أَفۡلَحَ)نجح و غلب غيره و ظفر بحاجته

(ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ)علا على صاحبه فغلبه و قهره فإنه المفلح الفائز فهذا يوم له ما بعده من الأيام ﴿٦٤﴾

قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ
يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾
وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾
فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ
ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ
وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ
فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ
مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾
وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾
جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

فلله درهم ما أصلبهم فى باطلهم و أشدهم فيه حيث أتوا بكل سبب و وسيلة و ممكن و مكيدة يكيدون بها الحق و يأبى الله إلا أن يتم نوره و يظهر الحق على الباطل

فلما تمت مكيدتهم و انحصر مقصدهم و لم يبق إلا العمل

(قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ)

خيروه موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأى حالة كانت ﴿٦٥﴾

فـ(قَالَ)لهم موسى:–

(بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ)أى: إلى موسى

(مِن سِحْرِهِمْ)البليغ(أَنَّهَا تَسْعَىٰ)أى: أنها حيات تسعى

*وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَوْدَعُوهَا مِنَ الزِّئْبَقِ مَا كَانَتْ تَتَحَرَّكُ بِسَبَبِهِ وَ تَضْطَرِبُ وَ تَمِيدُ بِحَيْثُ يُخَيَّلُ لِلنَّاظِرِ أَنَّهَا تَسْعَى بِاخْتِيَارِهَا وَ إِنَّمَا كَانَتْ حِيلَةً وَ كَانُوا جَمًّا غَفِيراً وَ جَمْعًا كَبِيراً فَأَلْقَى كُلٌّ مِنْهُمْ عَصًا وَ حَبْلًا حَتَّى صَارَ الْوادِى مَلْآنَ حَيَّاتٍ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا﴿٦٦﴾

فلما خيل إلى موسى ذلك:–

(فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ)كما هو مقتضى الطبيعة البشرية و إلا فهو جازم بوعد الله و نصره﴿٦٧﴾

(قُلْنَا)له تثبيتا و تطمينا

(لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ)عليهم أى:– ستعلو عليهم و تقهرهم و يذلوا لك و يخضعوا ﴿٦٨﴾

(وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ)أى:– عصاك

(تَلۡقَفۡ)تبتلع حبالهم و عصيهم(مَا صَنَعُوٓاْۖ)

*فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا كله و أكلته و الناس ينظرون لذلك الصنيع

(إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ)

أي: كيدهم و مكرهم ليس بمثمر لهم و لا ناجح فإنه من كيد السحرة الذين يموهون على الناس و يلبسون الباطل و يخيلون أنهم على الحق فعلم السحرة علما يقينا أن هذا ليس بسحر و أنه من الله فبادروا للإيمان﴿٦٩﴾

(فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ)

فوقع الحق و ظهر و سطع و بطل السحر و المكر و الكيد في ذلك المجمع العظيم فصارت بينة و رحمة للمؤمنين و حجة على المعاندين فَعِنْدَ ذَلِكَ وَقَعُوا سُجَّدًا لِلَّهِ وَ قَالُوا:{آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ47رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}[الشُّعَرَاءِ]

*وَ لِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:-كَانُوا أَوَّلَ النَّهَارِ سَحَرَةً وَ فِي آخِرِ النَّهَارِ شُهَدَاءَ بَرَرَةً﴿٧٠﴾

فــــــ(قَالَ)فرعون للسحرة

(ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ)أى كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة منى و لا إذن؟

استغرب ذلك منهم لأدبهم معه و ذلهم و انقيادهم له فى كل أمر من أمورهم و جعل هذا من ذاك

*ثم استلج فرعون فى كفره و طغيانه بعد هذا البرهان و استخف عقول قومه و أظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة ليس لأن الذى معه الحق بل لأنه تمالأ هو و السحرة و مكروا و دبروا أن يخرجوا فرعون و قومه من بلادهم فقبل قومه هذا المكر منه و ظنوه صدقا(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

*مع أن هذه المقالة التي قالها لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل و معرفة بالواقع فإن موسى أتى من مدين وحيدا و حين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة و لا غيرهم بل بادر إلى دعوة فرعون و قومه و أراهم الآيات

فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى فسعى ما أمكنه و أرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم

(إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ)فجاءوا إليه و وعدهم الأجر و المنزلة عند الغلبة و هم حرصوا غاية الحرص و كادوا أشد الكيد على غلبتهم لموسى و كان منهم ما كان

فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى و اتفقوا على ما صدر؟

هذا من أمحل المحال ثم توعد فرعون السحرة فقال:–

(فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ)كما يفعل بالمحارب الساعى بالفساد يقطع يده اليمنى و رجله اليسرى

(وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي)على(جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ)أى لأجل أن تشتهروا و تختزوا

(وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ)يعنى بزعمه هو أو الله و أنه(أَشَدُّ عَذَابٗا)من الله

(وَأَبۡقَىٰ)أدوم له قلبا (للحقائق و ترهيبا لمن لا عقل له) ٧١

و لهذا لما عرف السحرة الحق و رزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق أجابوه بقولهم

(قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ)نختارك و ما وعدتنا به من الأجر و التقريب(عَلَىٰ مَا جَآءَنَا)ما أرانا الله

(مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ)الآيات البينات الدالات على أن الله هو الرب المعبود وحده المعظم المبجل وحده و أن ما سواه باطل و نؤثرك على الذى فطرنا

(وَٱلَّذِي فَطَرَنَا)و خلقنا هذا لا يكون

(فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ)مما أوعدتنا به من القطع و الصلب و العذاب

(إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ)أى إنما توعدنا به غاية ما يكون فى هذه الحياة الدنيا ينقضى و يزول و لا يضرنا بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره فإنه دائم عظيم و هذا كأنه جواب منهم لقوله

(وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

و فى هذا الكلام من السحرة دليل على:–أنه ينبغى للعاقل أن يوازن:–

بين لذات الدنيا و لذات الآخرة و بين عذاب الدنيا و عذاب الآخرة ٧٢

(إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا)أى كفرنا و معاصينا فإن الإيمان مكفر للسيئات و التوبة تجب ما قبلها و قولهم

(وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ)الذى عارضنا به الحق هذا دليل على أنهم غير مختارين فى عملهم المتقدم

و إنما أكرههم فرعون إكراها و الظاهر–و الله أعلم–أن موسى لما وعظهم كما تقدم فى قوله:–

(وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ)

أثر معهم و وقع منهم موقعا كبيرا و لهذا تنازعوا بعد هذا الكلام و الموعظة.

ثم إن فرعون ألزمهم ذلك و أكرههم على المكر الذى أجروه

و لهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم حيث قالوا(إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا) فجروا على ما سنه لهم و أكرههم عليه و لعل هذه النكتة التى قامت بقلوبهم من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل و فعلهم ما فعلوا على وجه الإغماض هى التى أثرت معهم و رحمهم الله بسببها و وفقهم للإيمان و التوبة

(وَٱللَّهُ خَيۡرٞ)مما وعدتنا من الأجر و المنزلة و الجاه

(وَأَبۡقَىٰٓ)ثوابا و إحسانا لا ما يقول فرعون (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

يريد أنه أشد عذابا و أبقى و جميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون يذكر الله فيه إذا أتى على قصة السحرة أن فرعون توعدهم بالقطع و الصلب و لم يذكر أنه فعل ذلك و لم يأت فى ذلك حديث صحيح و الجزم بوقوعه أو عدمه يتوقف على الدليل و الله أعلم بذلك و غيره ﴿٧٣﴾

و لكن توعده إياهم بذلك مع اقتداره دليل على وقوعه و لأنه لو لم يقع لذكره الله و لإتفاق الناقلين على ذلك

(إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا)يخبر تعالى أن من أتاه و قدم عليه مجرما—

أى:—وصفه الجرم من كل وجه و ذلك يستلزم الكفر—و استمر على ذلك حتى مات

(فَإِنَّ لَهُۥ)نار(جَهَنَّمَ)الشديد نكالها العظيمة أغلالها البعيد قعرها الأليم حرها و قرها التى فيها من العقاب ما يذيب الأكباد و القلوب

و من شدة ذلك أن المعذب فيها لا يموت و لا يحيا (لَا يَمُوتُ فِيهَا)فيستريح(وَلَا يَحۡيَىٰ)حياة يتلذذ بها و إنما حياته محشوة بعذاب القلب و الروح و البدن الذى لا يقدر قدره و لا يفتر عنه ساعة يستغيث فلا يغاث و يدعو فلا يستجاب له.

نعم إذا استغاث أغيث بماء كالمهل يشوى الوجوه و إذا دعا أجيب بـــ(اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

*كَقَوْلِهِ:{لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ}[فَاطِر: 36] وَ قَالَ:-

{وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى 11 الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى 12 ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا} [الْأَعْلَى]

وَ قَالَ تَعَالَى:-{وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [الزُّخْرُف: 77]

*مسلم (185) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ﷜ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَ لَا يَحْيَوْنَ وَ لَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ- أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ-فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ(منصوب على الحال و هو جمع ضبارة بفتح الضاد و كسرها أشهرها الكسر و يقال فيها أيضا إضبارة قال أهل اللغة الضبائر جماعات في تفرقة (فبثوا) معناه فرقوا])

فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ثُمَّ قِيلَ:-يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ " فَقَالَ: رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ كَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ﴿٧٤﴾

(وَمَن يَأۡتِهِۦ)ربه(مُؤۡمِنٗا)به مصدقا لرسله متبعا لكتبه

(قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ)الواجبة و المستحبة

(فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ)المنازل العاليات و فى الغرف المزخرفات و اللذات المتواصلات و الأنهار السارحات و الخلود الدائم و السرور العظيم فيما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

*البخارى 2790 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ أَقَامَ الصَّلاَةَ وَ صَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِى وُلِدَ فِيهَا»
فَقَالُوا:-يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ؟
قَالَ:-«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ(البستان الذى يجمع ما فى البساتين كلها من شجر وزهر ونبات)فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ (أفضلها وخيرها) وَ أَعْلَى الجَنَّةِ-أُرَاهُ-(أظنه وهذا من كلام يحيى بن صالح شيخ البخارى أى أظنه قال (فوقه..))فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَ مِنْهُ تَفَجَّرُ(تنشق)أَنْهَارُ الجَنَّةِ» قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ: وَ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ٧٥

(جَنَّٰتُ عَدۡنٍ)إقامة وَ هُى بَدَلٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى

(تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ)الثواب(جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ)تطهر من الشرك و الكفر و الفسوق و العصيان إما أن لا يفعلها بالكلية أو يتوب مما فعله منها و زكى أيضا نفسه و نماها بالإيمان و العمل الصالح فإن للتزكية معنيين التنقية و إزالة الخبث و الزيادة بحصول الخير و سميت الزكاة زكاة لهذين الأمرين٧٦

وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾
فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾
يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾
كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾
وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾
قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ
وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ
أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾
قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

*لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون و قومه مكث فى مصر يدعوهم إلى الإسلام و يسعى فى تخليص بنى إسرائيل من فرعون و عذابه و فرعون فى عتو و نفور و أمره شديد على بنى إسرائيل و يريه الله من الآيات و العبر ما قصه الله علينا فى القرآن و بنو إسرائيل لا يقدرون أن يظهروا إيمانهم و يعلنوه قد اتخذوا بيوتهم مساجد و صبروا على فرعون و أذاه فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم و يمكن لهم فى الأرض ليعبدوه جهرا و يقيموا أمره

غرق فرعون و جنوده 77-82

(وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي)أن سر أو سيروا أول الليل ليتمادوا فى الأرض و أخبره أن فرعون و قومه سيتبعونه فخرجوا أول الليل جميع بنى إسرائيل هم و نساؤهم و ذريتهم

فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داع و لا مجيب فحنق عليهم عدوهم فرعون و أرسل فى المدائن من يجمع له الناس و يحضهم على الخروج فى أثر بنى إسرائيل ليوقع بهم و ينفذ غيظه و الله غالب على أمره فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بنى إسرائيل فأتبعوهم مشرقين:-

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

و قلقوا و خافوا البحر أمامهم و فرعون من ورائهم قد امتلأ عليهم غيظا و حنقا و موسى مطمئن القلب ساكن البال قد وثق بوعد ربه فقال:-(كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا)فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفرق اثنى عشر طريقا و صار الماء كالجبال العالية عن يمين الطرق و يسارها و أيبس الله طرقهم التى انفرق عنها الماء

(لَا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ)

و أمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون و لا يخشوا من الغرق فى البحر فسلكوا فى تلك الطرق ﴿٧٧﴾

(فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ)

فجاء فرعون و جنوده فسلكوا وراءهم حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين و قوم فرعون داخلين أمر الله البحر فالتطم عليهم

(فَغَشِيَهُم)فغمرهم(مِّنَ ٱلۡيَمِّ)الماء(مَا غَشِيَهُمۡ)ما لا يعلم كنهه إلا الله

و غرقوا كلهم و لم ينجح منهم أحد و بنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم قد أقر الله أعينهم بهلاكه ﴿٧٨﴾

(وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ) بما زين لهم من الكفر و تهجين ما أتى به موسى و استخفافه إياهم

(وَمَا هَدَىٰ)و ما هداهم فى وقت من الأوقات فأوردهم موارد الغى و الضلال ثم أوردهم مورد العذاب و النكال.

و هذا عاقبة الكفر و الضلال و عدم الاهتداء بهدى الله

*فَغَضِبَ فِرْعَوْنُ غَضَبًا شَدِيدًا وَ أَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ أَيْ مَنْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْجُنْدَ مِنْ بُلْدَانِهِ و رَسَاتيقه

يَقُولُ:-{إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ54 وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ} [الشُّعَرَاءِ]

ثُمَّ لَمَّا جَمَعَ جُنْدَهُ وَ اسْتَوْثَقَ لَهُ جَيْشُهُ سَاقَ فِي طَلَبِهِمْ{فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ}[الشُّعَرَاءِ: 60]أَيْ:عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ

{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ}أَيْ:نَظَرَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخَرِ :-

{قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ61 قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}[الشُّعَرَاءِ]

وَ وَقَفَ مُوسَى بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرُ أَمَامَهُمْ وَ فِرْعَوْنُ وَرَاءَهُمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنِ{اضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا} فَضَرَبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ وَ قَالَ: "انْفَلِقْ بِإِذْنِ اللَّهِ"{فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}[الشُّعَرَاءِ: 63]

أَيِ:الْجَبَلِ الْعَظِيمِ.

فَأَرْسَلَ اللَّهُ الرِّيحَ عَلَى أَرْضِ الْبَحْرِ فَلَفَحَتْهُ حَتَّى صَارَ يَابِسًا كَوَجْهِ الْأَرْضِ فَلِهَذَا قَالَ:

{فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا}أَيْ: مِنْ فِرْعَوْنَ{وَلا تَخْشَى}يَعْنِي: مِنَ الْبَحْرِ أَنْ يُغْرِقَ قَوْمَكَ ﴿٧٩﴾

(يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ)

يذكر تعالى بنى إسرائيل منته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم و مواعدته لموسى عليه السلامبجانب الطور الأيمن

لينزل عليه الكتاب الذى فيه الأحكام الجليلة و الأخبار الجميلة فتتم عليهم النعمة الدينية بعد النعمة الدنيوية

*البخارى4737 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-

لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺالمَدِينَةَ وَ اليَهُودُ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَسَأَلَهُمْ فَقَالُوا:-

هَذَا اليَوْمُ الَّذِي ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ»

(وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ)

و يذكر منته أيضا عليهم فى التيه بإنزال المن و السلوى و الرزق الرغد الهنى الذى يحصل لهم بلا مشقة ﴿٨٠﴾

و أنه قال لهم:–

(كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ)أى: و اشكروه على ما أسدى إليكم من النعم

(وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ)أى:فى رزقه فتستعملونه فى معاصيه و تبطرون النعمة

فإنكم إن فعلتم ذلك حل عليكم غضبى أى: غضبت عليكم ثم عذبتكم

(وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ)

ردى و هلك و خاب و خسر لأنه عدم الرضا و الإحسان و حل عليه الغضب و الخسران﴿٨١﴾

و مع هذا فالتوبة معروضة و لو عمل العبد ما عمل من المعاصى فلهذا قال:–

(وَإِنِّي لَغَفَّارٞ)أى:–كثير المغفرة و الرحمة(لِّمَن تَابَ)من الكفر و البدعة و الفسوق

(وَءَامَنَ)بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر

(وَعَمِلَ صَٰلِحٗا)من أعمال القلب و البدن و أقوال اللسان.

(ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ)أى: سلك الصراط المستقيم و تابع الرسول الكريم و اقتدى بالدين القويم

فهذا يغفر الله أوزاره و يعفو عما تقدم من ذنبه و إصراره لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة و الرحمة

بل الأسباب كلها منحصرة فى هذه الأشياء فإن التوبة تجب ما قبلها و الإيمان و الإسلام يهدم ما قبله

و العمل الصالح الذى هو الحسنات يذهب السيئات و سلوك طرق الهداية بجميع أنواعها من تعلم علم و تدبر

آية أو حديث حتى يتبين له معنى من المعانى يهتدى به و دعوة إلى دين الحق و رد بدعة أو كفر أو ضلالة

و جهاد و هجرة و غير ذلك من جزئيات الهداية كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب﴿٨٢﴾

*كان الله تعالى قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة فأتمها بعشر فلما تم الميقات

بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعد شوقا لربه و حرصا على موعوده فقال الله له:–

(وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ)أى:ما الذى قدمك عليهم؟ و لم لم تصبر حتى تقدم أنت و هم؟ ﴿٨٣﴾

(قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ)أى: قريبا منى(عَلَىٰٓ أَثَرِي)و سيصلون فى أثرى

اضلال السامرى لبنى اسرائيل و غضب موسى 83-99

(وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ)و الذى عجلنى إليك يا رب طلبا لقربك و مسارعة فى رضاك و شوقا إليك﴿٨٤﴾

فقال الله له:–

(قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا)اختبرنا(قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ)أى:بعبادتهم للعجل فلم يصبروا و حين وصلت إليهم المحنة كفروا

(وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ)(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلا جَسَدًا وصاغه فصار لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا لهم هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فنسيـ)ـه موسى عليه السلام

فافتتن به بنو إسرائيل فعبدوه و نهاهم هارون فلم ينتهوا85

(فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ)و هو (غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ)أى: ممتلئ غيظا و حنقا و غما

(قَالَ)لهم موبخا و مقبحا لفعلهم:–(يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ)و ذلك بإنزال التوراة

(أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ)أى: المدة فتطاولتم غيبتى و هى مدة قصيرة؟ هذا قول كثير من المفسرين

و يحتمل أن معناه: أفطال عليكم عهد النبوة و الرسالة فلم يكن لكم بالنبوة علم و لا أثر و اندرست آثارها

فلم تقفوا منها على خبر فانمحت آثارها لبعد العهد بها فعبدتم غير الله لغلبة الجهل و عدم العلم بآثار الرسالة؟

أي: ليس الأمر كذلك بل النبوة بين أظهركم و العلم قائم و العذر غير مقبول؟

(أَمۡ)"أَمْ" هَاهُنَا بِمَعْنَى "بَلْ" وَ هِىَ لِلْإِضْرَابِ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ وَ عُدُولٌ إِلَى الثَّانِي كَأَنَّهُ يَقُولُ:-

بَلْ (أَرَدتُّمۡ)بفعلكم و بِصَنِيعِكُمْ هَذَا

(أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ)؟أى: فتعرضتم لأسبابه و اقتحمتم موجب عذابه و هذا هو الواقع

(فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي)حين أمرتكم بالاستقامة و وصيت بكم هارون فلم ترقبوا غائبا و لم تحترموا حاضرا86

(قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا)باختيارنا_قالوا له:–ما فعلنا الذى فعلنا عن تعمد منا و ملك منا لأنفسنا

و لكن السبب الداعى لذلك(وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا)أننا تأثمنا(مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ)التى عندنا و كانوا فيما يذكرون

استعاروا حليا كثيرا من القبط فخرجوا و هو معهم و ألقوه و جمعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع.

(فَقَذَفۡنَٰهَا)فألقيناها فى حفرة فيها نار بأمر السامرى

(فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ)ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل عليه السلام

*و كان السامرى قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره

و أنه إذا ألقاها على شيء حيى فتنة و امتحانا فألقاها على ذلك العجل الذى صاغه بصورة عجل فتحرك العجل

و صار له خوار و صوت و قالوا: إن موسى ذهب يطلب ربه و هو هاهنا فنسيه٨٧

مُوسَىٰ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾
أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ
إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ
حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾
قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي
﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ
ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ
ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾

(فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ)يخور خوار البقر

(فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ)أى:- نسيه و غفل عنه.

*و هذا من بلادتهم و سخافة عقولهم حيث رأوا هذا الغريب الذى صار له خوار بعد أن كان جمادا فظنوه إله الأرض و السماوات﴿٨٨﴾

(أَفَلَا يَرَوۡنَ)أن العجل

(أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا)أى: لا يتكلم و يراجعهم و يراجعونه

(وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا)

فالعادم للكمال و الكلام و الفعال لا يستحق أن يعبد و هو أنقص من عابديه فإنهم يتكلمون و يقدرون على بعض الأشياء من النفع و الدفع بإقدار الله لهم.

*وَ حَاصِلُ مَا اعْتَذَرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنْ زِينَةِ الْقِبْطِ فَأَلْقَوْهَا عَنْهُمْ وَ عَبَدُوا الْعِجْلَ. فَتَوَرَّعُوا عَنِ الْحَقِيرِ وَ فَعَلُوا الْأَمْرَ الْكَبِيرَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

*البخارى5994 - عَنِ ابْنِ أَبِي نُعْمٍ قَالَ: كُنْتُ شَاهِدًا لِابْنِ عُمَرَ وَ سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ دَمِ البَعُوضِ فَقَالَ:- مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مِنْ أَهْلِ العِرَاقِ قَالَ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا يَسْأَلُنِي عَنْ دَمِ البَعُوضِ وَ قَدْ قَتَلُوا ابْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ:-«هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا»﴿٨٩﴾

(وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم)اختبرتم(بِهِۦۖ)أى:-بهذا العجل ليظهر المؤمن منكم من الكافر

أى: إن اتخاذهم العجل ليسوا معذورين فيه فإنه و إن كانت عرضت لهم الشبهة فى أصل عبادته

فإن هارون قد نهاهم عنه و أخبرهم أنه فتنة

(وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي)

و أن ربهم الرحمن الذي منه النعم الظاهرة و الباطنة الدافع للنقم و أنه أمرهم أن يتبعوه و يعتزلوا العجل فأبو90

و(قَالُواْ)أى:-عُبَّاد العجل منهم(لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ)نزال(عَٰكِفِينَ)مقيمين على عبادة العجل(حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ)91

فأقبل موسى على أخيه لائما له و (قَالَ):-

(يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ)فتخبرنى لأبادر للرجوع إليهم؟

(أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي)فى قولى و فيما أمرتك به من خلافتى و الإصلاح بعدى؟

(اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)فأخذ موسى برأس هارون ولحيته يجره من الغضب والعتب عليه93

فـ(قَالَ)هارون(يَبۡنَؤُمَّ):-ترقيق له و إلا فهو شقيقه

(لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ)خفتُ إن تركتهم و لحقت بك و (أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ)

فإنك أمرتنى أن أخلفك فيهم فلو تبعتك لتركت ما أمرتنى بلزومه و خشيت لائمتك

*حيث تركتهم و ليس عندهم راع و لا خليفة فإن هذا يفرقهم و يشتت شملهم فلا تجعلنى مع القوم الظالمين

و لا تشمت فينا الأعداء فندم موسى على ما صنع بأخيه و هو غير مستحق لذلك

فـ(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي)و لم تحفظ وصيتى بحسن رعايتهم95ثم أقبل على السامرى:-

(قَالَ)موسى(فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ)ما شأنك يا سامرى حيث فعلت ما فعلت؟﴿٩٥﴾

فــ(قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ)

و هو جبريل عليه السلام على فرس رآه وقت خروجهم من البحر و غرق فرعون و جنوده على ما قاله المفسرون

(قَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ)هو جبريل عليه السلام من أثر حافر فرسه

(فَنَبَذۡتُهَا)على العجل(وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ)زيَّنت

(لِي نَفۡسِي)الأمَّارة بالسوء هذا الصنيع أن أقبضها ثم أنبذها فكان ما كان﴿٩٦﴾

فــ(قَالَ)له موسى:-(فَٱذۡهَبۡ)أى:-تباعد عنى و استأخر منى

(فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ)

أى:-تعاقب فى الحياة عقوبة لا يدنو منك أحد و لا يمسك أحد حتى إن من أراد القرب منك
قلت له: لا تمسنى و لا تقرب منى عقوبة على ذلك حيث مس ما لم يمسه غيره و أجرى ما لم يجره أحد

(وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ)تغيب عنه فتجازى بعملك من خير و شر

(وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا)أى: العجل(لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ)بالنار

(ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ)لنُذرونَّه(فِى ٱلْيَمِّ)البحر(نَسْفًا)ذروا لتذهب به الريح حتى لا يبقى منه أثر.

*ففعل موسى ذلك فلو كان إلها لامتنع ممن يريده بأذى و يسعى له بالإتلاف و كان قد أشرب العجل فى قلوب بني إسرائيل فأراد موسى عليه السلام إتلافه و هم ينظرون على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق و السحق و ذريه فى اليم و نسفه ليزول ما فى قلوبهم من حبه كما زال شخصه و لأن فى إبقائه محنة لأن فى النفوس أقوى داع إلى الباطل (٩٧)

فلما تبين لهم بطلانه أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له فقال:-

(إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ)أى:-لا معبود إلا وجهه الكريم فلا يؤله و لا يحب و لا يرجى و لا يخاف و لا يدعى إلا هو لأنه الكامل الذى له الأسماء الحسنى و الصفات العلى

فـــ(لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ)و لا معبود سواه

(وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا)المحيط علمه بجميع الأشياء الذى ما من نعمة بالعباد إلا منه و لا يدفع السوء إلا هو

*كقوله{ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[سبأ: 3]
{وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[الأنعام: 59] (٩٨)

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ
فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ
وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾
فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ
وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ
قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ
وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾

(كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ)

يمتن الله تعالى على نبيه ﷺبما قصه عليه من أنباء السابقين و أخبار السالفين كهذه القصة العظيمة و ما فيها من الأحكام و غيرها التى لا ينكرها أحد من أهل الكتاب فأنت لم تدرس أخبار الأولين و لم تتعلم ممن دراها فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم دليل على أنك رسول الله حقا و ما جئت به صدق و لهذا قال:–

(وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا)أى:–عطية نفيسة و منحة جزيلة من عندنا.

(ذِكۡرٗا)و هو هذا القرآن الكريم ذكر:–

1–للأخبار السابقة و اللاحقة 2–و ذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء و الصفات الكاملة

3–و يتذكر به أحكام الأمر و النهى و أحكام الجزاء

و هذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام التى تشهد العقول و الفطر بحسنها و كمالها و يذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها و إذا كان القرآن ذكرا للرسول و لأمته فيجب تلقيه بالقبول و التسليم و الانقياد و التعظيم و أن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم و أن يقبلوا عليه بالتعلم و التعليم.

و أما مقابلته بالإعراض أو ما هو أعظم منه من الإنكار فإنه كفر لهذه النعمة و من فعل ذلك فهو مستحق للعقوبة﴿٩٩﴾

و لهذا قال:–

(مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ) فلم يؤمن به أو تهاون بأوامره و نواهيه أو بتعلم معانيه الواجبة

(فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا)و هو ذنبه الذي بسببه أعرض عن القرآن و أولاه الكفر و الهجران﴿١٠٠﴾

(خَٰلِدِينَ فِيهِ)أي:–في وزرهم لأن العذاب هو نفس الأعمال تنقلب عذابا على أصحابها بحسب صغرها و كبرها

(وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا)أى: بئس الحمل الذى يحملونه و العذاب الذى يعذبونه يوم القيامة﴿١٠١﴾

ثم استطرد فذكر أحوال يوم القيامة و أهواله فقال:–

جزاء المعرضين عن القرآن و مشاهد من القيامة 100-114

(يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ)

*أبي داود 4742-عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:«الصُّورُ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»

*الترمذى2431 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-«كَيْفَ أَنْعَمُ وَ صَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَ اسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ»فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ:-" قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا "

*إذا نفخ فى الصور و خرج الناس من قبورهم يخرج الناس كل على حسب حاله فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدا

(وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ)و المجرمون يحشرون

(زُرۡقٗا)ألوانهم من الخوف و القلق و العطش_مَعْنَاهُ زُرْق الْعُيُونِ مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْأَهْوَال102

(يَتَخَٰفَتُونَ)يتناجون(بَيۡنَهُمۡ)و يتخافتون فى قصر مدة الدنيا و سرعة الآخرة فيقول بعضهم

(إِن)ما(لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا)من الأيام و يقول بعضهم غير ذلك103

(نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ)و الله يعلم تخافتهم و يسمع ما يقولون

(إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ)أى:أعدلهم و أقربهم إلى التقدير(طَرِيقَةً)

(إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا)و المقصود من هذا الندم العظيم كيف ضيعوا الأوقات القصيرة و قطعوها ساهين لاهين معرضين عما ينفعهم مقبلين على ما يضرهم فها قد حضر الجزاء و حق الوعيد فلم يبق إلا الندم و الدعاء بالويل و الثبور. كما قال تعالى(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ* قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ* قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)104

*يخبر تعالى عن أهوال القيامة و ما فيها من الزلازل و القلاقل فقال:–

(وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ)أى:ماذا يصنع بها يوم القيامة و هل تبقى بحالها أم لا؟

(فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا)أى:يزيلها و يقلعها من أماكنها فتكون كالعهن و كالرمل ثم يدكها فيجعلها هباء منبثا فتضمحل و تتلاشى و يسويها بالأرض﴿١٠٥﴾

(فَيَذَرُهَا)فيترك الأرض حينئذ(قَاعًا)هو:-الْمُسْتَوِى مِنَ الْأَرْضِ

(صَفْصَفًا)تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى ذَلِكَبِسَاطًا وَاحِدًا منبسطة مستوية ملساء لا نبات فيها ﴿١٠٦﴾

(لَّا تَرَىٰ فِيهَا)لا يرى فيه أيها الناظر

(عِوَجًا)هذا من تمام استوائها_لا يرى الناظر إليها مِن استوائها مَيْلا

(وَلَآ أَمْتًا)و لا ارتفاعًا و لا انخفاضًا أى:–أودية و أماكن منخفضة أو مرتفعة فتبرز الأرض و تتسع للخلائق و يمدها الله مد الأديم فيكونون فى موقف واحد يسمعهم الداعى و ينفذهم البصر﴿١٠٧﴾ و لهذا قال:–

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ)

و ذلك حين يبعثون من قبورهم و يقومون منها يدعوهم الداعى إلى الحضور و الاجتماع للموقف فيتبعونه مهطعين إليه لا يلتفتون عنه و لا يعرجون يمنة و لا يسرة

(لَا عِوَجَ لَهُۥ)عَنْهُ_لَا يَمِيلُونَ عَنْهُ_لدعوة الداعى بل تكون دعوته حقا وصدقا لجميع الخلق يسمعهم جميعهم و يصيح بهم أجمعين

(وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ)فيحضرون لموقف القيامة خاشعة أصواتهم للرحمن

(فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)إلا وطء الأقدام_ المخافتة سرا بتحريك الشفتين فقط

*يملكهم الخشوع و السكون و الإنصات انتظارا لحكم الرحمن فيهم و تعنو وجوههم أى: تذل و تخضع فترى في ذلك الموقف العظيم الأغنياء و الفقراء و الرجال و النساء و الأحرار و الأرقاء و الملوك و السوقة ساكتين منصتين خاشعة أبصارهم خاضعة رقابهم جاثين على ركبهم عانية وجوههم

لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به و لا ماذا يفعل به قد اشتغل كل بنفسه و شأنه عن أبيه وأخيه و صديقه و حبيبه (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

فحينئذ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان و يجازى المحسن بإحسانه و المسيء بالحرمان.

و الأمل بالرب الكريم الرحمن الرحيم أن يرى الخلائق منه من :–

الفضل و الإحسان و العفو و الصفح و الغفران ما لا تعبر عنه الألسنة و لا تتصوره الأفكار و يتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه فيختص المؤمنون به وبرسله بالرحمة فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟

و إن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه و من سعة جوده الذى عم جميع البرايا و مما نشاهده فى أنفسنا و فى غيرنا من النعم المتواترة فى هذه الدار و خصوصا فى فصل القيامة

فإن قوله: (وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) (إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ مع قوله الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ)

مع قوله ﷺ: « إن لله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة بها يتراحمون و يتعاطفون حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تطأه)– أى:–من الرحمة المودعة فى قلبها فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى تسع و تسعين رحمة فرحم بها العباد مع قوله ﷺ:–« لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»

فقل ما شئت عن رحمته فإنها فوق ما تقول و تصور ما شئت فإنها فوق ذلك

فسبحان من رحم فى عدله و عقوبته كما رحم فى فضله و إحسانه و مثوبته و تعالى من وسعت رحمته كل شيء و عم كرمه كل حى وجل من غنى عن عباده رحيم بهم و هم مفتقرون إليه على الدوام فى جميع أحوالهم فلا غنى لهم عنه طرفة عين﴿١٠٨﴾

(يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ)لا يشفع أحد عنده من الخلق(إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ)فى الشفاعة(وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا) و لا يأذن إلا لمن رضى قوله أى:شفاعته مـن:–

الأنبياء و المرسلين و عباده المقربين فيمن ارتضى قوله و عمله و هو المؤمن المخلص فإذا اختل واحد من هذه الأمور فلا سبيل لأحد إلى شفاعة من أحد كَقَوْلِهِ:{مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ}[الْبَقَرَة: 255]

وَ قَوْلُهُ:{وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}[النَّجْم: 26]

وَ قَالَ:{وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى}[الأَنْبِيَاء: 28] وَ قَالَ:{وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}[سَبَأ: 23]

وَ قَالَ:{يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}[النَّبَأ: 38] .

*البخارى 6565 - عَنْ أَنَسٍ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
"يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُونَ:-لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِى خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَ نَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَ أَمَرَ المَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ
فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا. فَيَقُولُ:-لَسْتُ هُنَاكُمْ وَ يَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ وَ يَقُولُ: ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ
فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ:-لَسْتُ هُنَاكُمْ وَ يَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِى اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا
فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ:-لَسْتُ هُنَاكُمْ وَ يَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ ائْتُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ
فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ:-لَسْتُ هُنَاكُمْ فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ ائْتُوا عِيسَى فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ
فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَ مَا تَأَخَّرَ فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا
فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ: سَلْ تُعْطَهْ وَ قُلْ يُسْمَعْ وَ اشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِى
فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِى ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ
وَ أُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ
وَ كَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ عِنْدَ هَذَا:-«أَىْ وَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ»﴿١٠٩﴾

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)كَقَوْلِهِ: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ} [الْبَقَرَة: 255]

(وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا)﴿١١٠﴾

(وَعَنَتِ)خَضَعَتْ وَ ذَلَّتْ وَ اسْتَسْلَمَتِ الْخَلَائِقُ(ٱلْوُجُوهُ)لِجَبَّارِهَا (لِلْحَىِّ)الَّذِى لَا يَمُوتُ(ٱلْقَيُّومِ)

الَّذِى لَا يَنَامُ وَ هُوَ قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يُدَبِّرُهُ وَ يَحْفَظُهُ فَهُوَ الْكَامِلُ فِى نَفْسِهِ الَّذِى كُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهِ.

(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا)أَىْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّى كُلَّ حَقٍّ إِلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ.

*مسلم (2578)عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:«اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَ اسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»

*وَ الْخَيْبَةُ كُلَّ الْخَيْبَةِ مَنْ لَقِىَ اللَّهَ وَ هُوَ مُشْرِكٌ بِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[لُقْمَان: 13]

و ينقسم الناس فى ذلك الموقف قسمين:–

القسم الأول:–ظالمين بكفرهم و شرهم فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة و الحرمان و العذاب الأليم فى جهنم

و سخط الديان(١١١)

و القسم الثانى:–

(وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)من آمن الإيمان المأمور به و عمل صالحا من واجب و مسنون

(فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا)زيادة فى سيئاته بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ ذَنْبُ غَيْرِهِ

(وَلَا هَضْمًا)نقصا من حسناته بل تغفر ذنوبه و تطهر عيوبه و تضاعف حسناته

(وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)(١١٢)

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ)هذا الكتاب

(قُرْءَانًا عَرَبِيًّا)باللسان الفاضل العربى الذى تفهمونه و تفقهونه و لا يخفى عليكم لفظه و لا معناه.

(وَصَرَّفْنَا)نوعنا أنواعا كثيرة (فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ) تارة:–

1– بذكر أسمائه الدالة على العدل و الانتقام

2–بذكر المثلات التى أحلها بالأمم السابقة و أمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة

3–بذكر آثار الذنوب و ما تكسبه من العيوب

4–بذكر أهوال القيامة و ما فيها من المزعجات والمقلقات

5–بذكر جهنم و ما فيها من أنوع العقاب و أصناف العذاب كل هذا رحمة بالعباد

(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)الله فيتركون من الشر و المعاصى ما يضرهم

(أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا)فيعملون من الطاعات و الخير ما ينفعهم فكونه عربيا

و كونه مصرفا فيه من الوعيد أكبر سبب و أعظم داع للتقوى و العمل الصالح فلو كان غير عربى أو غير مصرف فيه لم يكن له هذا الأثر(١١٣)

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا
﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ
فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا
وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ
وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ
وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾
وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

*لما ذكر تعالى حكمه الجزائى فى عباده و حكمه الأمرى الدينى الذى أنزله فى كتابه و كان هذا من آثار ملكه قال:-

(فَتَعَٰلَى)جل و ارتفع و تقدس(ٱللَّهُ)عن كل نقص و آفة

(ٱلْمَلِكُ)الذى الملك وصفه و الخلق كلهم مماليك له و أحكام الملك القدرية و الشرعية نافذة فيهم.

(ٱلْحَقُّ)أى: وجوده و ملكه و كماله حق

فصفات الكمال لا تكون حقيقة إلا لذى الجلال

و من ذلك:-الملك فإن غيره من الخلق و إن كان له ملك فى بعض الأوقات على بعض الأشياء فإنه ملك قاصر باطل يزول و أما الرب فلا يزال و لا يزول ملكا حيا قيوما جليلا.

(وَلَا تَعْجَلْ)تبادر (بـ)تلقف(بِٱلْقُرْءَانِ)

(مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ)حين يتلوه عليك جبريل و اصبر حتى يَفْرغ منه فإذا فرغ منه فاقرأه فإن الله قد ضمن لك جمعه فى صدرك و قراءتك إياه كما قال تعالى:-

(لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)

(وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا)و لما كانت عجلته ﷺعلى تلقف الوحى و مبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم

و حرصه عليه أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم

فإن العلم خير و كثرة الخير مطلوبة و هى من الله و الطريق إليها الاجتهاد و الشوق للعلم و سؤال الله و الاستعانة به و الافتقار إليه في كل وقت

و يؤخذ من هذه الآية الكريمة:-

1-الأدب فى تلقى العلم

2-و أن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأني و يصبر حتى يفرغ المملى و المعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال

3-و لا يبادر بالسؤال و قطع كلام ملقي العلم فإنه سبب للحرمان

4-و كذلك المسئول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل(Î)و يعرف المقصود منه قبل الجواب فإن ذلك سبب لإصابة الصواب

قصة سجود الملائكة لآدم و تحذيره من ابليس 115-127

(وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ)وصينا(إِلَىٰٓ ءَادَمَ)و أمرناه و عهدنا إليه عهدا ليقوم به فالتزمه و أذعن له و انقاد و عزم على القيام به و مع ذلك نسى ما أمر به

*عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:-إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانَ لِأَنَّهُ عَهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ.

(وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا)و انتقضت عزيمته المحكمة فجرى عليه ما جرى فصار عبرة لذريته و صارت طبائعهم مثل طبيعته نسى آدم فنسيت ذريته و خطئ فخطئوا و لم يثبت على العزم المؤكد و هم كذلك و بادر بالتوبة من خطيئته و أقر بها و اعترف فغفرت له و من يشابه أباه فما ظلم ﴿١١٥﴾ ثم ذكر تفصيل ما أجمله فقال:-

*لما أكمل خلق آدم بيده و علمه الأسماء و فضله و كرمه أمر الملائكة بالسجود له إكراما و تعظيما و إجلالا فقال:-

(وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ)

فبادروا بالسجود ممتثلين و كان بينهم إبليس فاستكبر عن أمر ربه و امتنع من السجود لآدم و قال:-

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

فتبينت حينئذ عداوته البليغة لآدم و زوجه لما كان عدوا لله و ظهر من حسده ما كان سبب العداوة فحذر الله آدم و زوجه منه ﴿١١٦﴾

(فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ)

معجم اللغة العربية المعاصرة:-ستملى يَستملى اسْتَمْلِ استِملاءً فهو مُستملٍ والمفعول مُسْتملًى استملاه الكتابَ: طلب منه أن يقرأه له فيكتب.

و قال(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ)إذا أخرجت منها فإن لك فيها الرزق الهنى و الراحة التامة ﴿١١٧﴾

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ)إِنَّمَا قَرَنَ بَيْنَ الْجُوعِ و العُرْى:-لِأَنَّ الْجُوعَ ذُلّ الْبَاطِنِ وَ الْعُرْىَ ذُلّ الظَّاهِرِ﴿١١٨﴾

(وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا)الظَّمَأُ: حَرُّ الْبَاطِنِ وَ هُوَ الْعَطَشُ(وَلَا تَضْحَىٰ)وَ الضُّحَى:-حَرُّ الظَّاهِرِ.

*أى:تصييبك الشمس بحرها فضمن له استمرار الطعام و الشراب و الكسوة و الماء و عدم التعب و النصب

و لكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال:–(وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)﴿١١٩﴾

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ)فلم يزل الشيطان يسول لهما و يزين أكل الشجرة و يقول:–

(هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ)أى: الشجرة التى من أكل منها خلد فى الجنة.

(وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ)ينقطع إذا أكلت منها

فأتاه بصورة ناصح و تلطف له فى الكلام فاغتر به آدم و أكلا من الشجرة فسقط فى أيديهما و سقطت كسوتهما و اتضحت معصيتهما ﴿١٢٠﴾

(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ)فانكشفت(لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا)عوراتهما

و بدا لكل منهما سوأة الآخر بعد أن كانا مستورين لهما

(وَطَفِقَا)فأخذا (يَخْصِفَانِ)ينزعان(عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ)أشجار(ٱلْجَنَّةِۚ)و يلصقانه عليهما ليستترا بذلك و أصابهما من الخجل ما الله به عليم.

*قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ{دَلاهُمَا بِغُرُورٍ}[الْأَعْرَافِ: 22]{وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: 21]

و قد تَقَدَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى آدَمَ وَ زَوْجَتِهِ أَنَّ يَأْكُلَا مِنْ كُلِّ الثِّمَارِ وَ لَا يَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ الْمُعَيَّنَةَ فِي الْجَنَّةِ. فَلَمْ يَزَلْ بِهِمَا إِبْلِيسُ حَتَّى أَكَلَا مِنْهَا

(وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ)و خالف آدم أمر ربه

(فَغَوَىٰ)بالأكل من الشجرة التى نهاه الله عن الاقتراب منهافبادرا إلى التوبة و الإنابة و قالا:–

(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)فاجتباه ربه و اختاره و يسر له التوبة ﴿١٢١﴾

(ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ)اصطفاه(رَبُّهُۥ)و قرّبه(فَتَابَ عَلَيْهِ)و قَبِل توبته(وَهَدَىٰ)و هداه رشده.

*فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها و رجع كيد العدو عليه و بطل مكره فتمت النعمة عليه و على ذريته

و وجب عليهم القيام بها و الاعتراف و أن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم ليلا و نهارا

(يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)

*البخارى 4738 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

حَاجَّ مُوسَى آدَمَ فَقَالَ لَهُ:-أَنْتَ الَّذِى أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَ أَشْقَيْتَهُمْ

قَالَ:قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَ بِكَلَامِهِ أَتَلُومُنِى عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَىَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِى-أَوْ قَدَّرَهُ عَلَىَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِى-"قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-«فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»(١٢٢)

(قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)يخبر تعالى أنه أمر آدم و إبليس أن يهبطا إلى الأرض و أن يتخذوا آدم و بنوه الشيطان عدوا لهم فيأخذوا الحذر منه و يعدوا له عدته و يحاربوه

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى)

و أنه سينزل عليهم كتبلو يرسل إليهم رسلا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه و إلى جنته و يحذرونهم من هذا العدو المبين و أنهم أى: وقت جاءهم ذلك الهدى الذى هو الكتب و الرسل

(فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ)فإن من اتبعه اتبع ما أمر به و اجتنب ما نهى عنه

(فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ)فإنه لا يضل فى الدنيا و لا فى الآخرة و لا يشقى فيهما بل قد هدى إلى صراط مستقيم في الدنيا و الآخرة و له السعادة و الأمن فى الآخرة. و قد نفى عنه الخوف و الحزن فى آية أخرى بقوله:-

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)و اتباع الهدى بتصديق الخبر و عدم معارضته بالشبه و امتثال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة(١٢٣)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى)أى:كتابى الذى يتذكر به جميع المطالب العالية و أن يتركه على وجه الإعراض عنه أو ما هو أعظم من ذلك بأن يكون على وجه الإنكار له و الكفر به

(فَإِنَّ)جزاءه أن نجعل(لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا)مشقة و لا يكون ذلك إلا عذابا.

و فسرت المعيشة الضنك:-

1-بعذاب القبر و أنه يضيق عليه قبره و يحصر فيه و يعذب جزاء لإعراضه عن ذكر ربه و هذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر(يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ فِيهِ)

2-قوله تعالى:-(وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ)

3-قوله:-(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ)

4-قوله عن آل فرعون:-(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)الآية.

و الذى أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف و قصرها على ذلك-و الله أعلم-آخر الآية و أن الله ذكر فى آخرها عذاب يوم القيامة.

و بعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة فى دار الدنيا بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم و الغموم و الآلام التى هى عذاب معجل و فى دار البرزخ و فى الدار الآخرة لإطلاق المعيشة الضنك و عدم تقييدها

5-فِي الدُّنْيَا فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ وَ لَا انْشِرَاحَ لِصَدْرِهِ بَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ حَرَجٌ لِضَلَالِهِ وَ إِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ

وَ لَبِسَ مَا شَاءَ وَ أَكَلَ مَا شَاءَ وَ سَكَنَ حَيْثُ شَاءَ فَإِنَّ قلبه مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَ الْهُدَى فَهُوَ فِي قَلَقٍ وَ حَيْرَةٍ وَ شَكٍّ فَلَا يَزَالُ فِي رِيبَةٍ يَتَرَدَّدُ. فَهَذَا مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ.

6-الشَّقَاءُ.

7-هُوَ الْعَمَلُ السَّيِّئُ وَ الرِّزْقُ الْخَبِيثُ

(وَنَحۡشُرُهُۥ)أى: هذا المعرض عن ذكر ربه

(يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ)البصر على الصحيح كما قال(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا)[الاسراء:97] ١٢٤

قال على وجه الذل و المراجعة و التألم و الضجر من هذه الحالة:-

(قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ)فى دار الدنيا(بَصِيرٗا)فما الذى صيرنى إلى هذه الحالة البشعة ١٢٥

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ
وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾
فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ
فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ
نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ
﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

(قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا)بإعراضك عنها(وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ)أى: تُتْرك فى العذاب فأجيب بأن هذا هو عين عملك و الجزاء من جنس العمل فكما عميت عن ذكر ربك و عشيت عنه و نسيته و نسيت حظك منه أعمى الله بصرك فى الآخرة فحشرت إلى النار أعمى أصم أبكم و أعرض عنك و نسيك فى العذاب

*لَمَّا أَعْرَضْتَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ و عامَلْتها مُعَامَلَةَ مَنْ لَمْ يَذْكُرْهَا بَعْدَ بَلَاغِهَا إِلَيْكَ تَنَاسَيْتَهَا وَ أَعْرَضْتَ عَنْهَا وَ أَغْفَلْتَهَا كَذَلِكَ نُعَامِلُكَ الْيَوْمَ مُعَامَلَةَ مَنْ يَنْسَاكَ{فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا}[الْأَعْرَافِ: 51]
فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ فَأَمَّا نِسْيَانُ لَفْظِ الْقُرْآنِ مَعَ فَهْمِ مَعْنَاهُ وَ الْقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ فَلَيْسَ دَاخِلًا فِي هَذَا الْوَعِيدِ الْخَاصِّ﴿١٢٦﴾

(وَكَذَٰلِكَ)أى: هذا الجزاء(نَجْزِى)به(مَنْ أَسْرَفَ)بأن تعدى الحدود و ارتكب المحارم و جاوز ما أذن له

(وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ)الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة فالله لم يظلمه و لم يضع العقوبة فى غير محلها و إنما السبب إسرافه و عدم إيمانه(وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ)من عذاب الدنيا أضعافا مضاعفة

(وَأَبْقَىٰٓ)لكونه لا ينقطع بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع فالواجب الخوف و الحذر من عذاب الآخرة.
*وَ هَكَذَا نُجَازِى الْمُسْرِفِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ
{لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ}[الرَّعْدِ: 34]﴿١٢٧﴾

الاعتبار بالأمم السابقة و توجيهات للنبى و عناد المشركين128-135

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ)أى:-لهؤلاء المكذبين المعرضين و يدلهم على سلوك طريق الرشاد و تجنب طريق الغى و الفساد

(كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ)

ما أحل الله بالمكذبين قبلهم من القرون الخالية و الأمم المتتابعة الذين يعرفون قصصهم و يتناقلون أسمارهم

(يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ)و ينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم كقوم هود و صالح و لوط و غيرهم و أنهم لما كذبوا رسلنا و أعرضوا عن كتبنا أصبناهم بالعذاب الأليم؟ فما الذى يؤمن هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك؟

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ*أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ)

لا شيء من هذا كله فليس هؤلاء الكفار خيرا من أولئك حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم بل هم شر منهم لأنهم كفروا بأشرف الرسل و خير الكتب و ليس لهم براءة مزبورة و عهد عند الله و ليسوا كما يقولون أن جمعهم ينفعهم و يدفع عنهم بل هم أذل و أحقر من ذلك فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاءوهم و بطلان ما هم عليه

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ)و لكن ما كل أحد ينتفع بالآيات إنما ينتفع بها أولو النهى أى:- العقول السليمة و الفطر المستقيمة و الألباب التى تزجر أصحابها عما لا ينبغى ﴿١٢٨﴾

(وَلَوْلَا)الك‍ـــ(كَلِمَةٌ)التى(سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ)وَ هُوَ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ

(لَكَانَ لِزَامًا)للهلاك العاجل

(وَأَجَلٌ مُّسَمًّى)الَّذِى ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ لَجَاءَهُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً

*هذا تسلية للرسول و تصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين و أن كفرهم و تكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم و لزومه لهم لأن الله جعل العقوبات سببا و ناشئا عن الذنوب ملازما لها

و هؤلاء قد أتوا بالسبب و لكن الذى أخره عنهم :-

1-كلمة ربك المتضمنة لإمهالهم و تأخيرهم

2-و ضرب الأجل المسمى

فالأجل المسمى و نفوذ كلمة الله هو الذى أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها و لعلهم يراجعون أمر الله فيتوب عليهم و يرفع عنهم العقوبة إذا لم تحق عليهم الكلمة ﴿١٢٩﴾

(فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)

و لهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول و أمره أن يتعوض عن ذلك و يستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه فى هذه الأوقات الفاضلة:-(قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ)صلاة الفجر

(وَقَبْلَ غُرُوبِهَا)صلاة العصر

(وَمِنْ ءَانَآيِ)واحد الأناء: أنيٌ و إني و أني

(ٱلَّيۡلِ)صلاتا المغرب و العشاء

(فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ)

و هو صلاة الظهر لأنها تقع بين طرفي النهار أى نصفه الأول و نصفه الثاني و ذلك عند زوال الشمس

(لَعَلَّكَ)إن فعلت ذلك (تَرۡضَىٰ)بما يعطيك ربك من الثواب العاجل و الآجل و ليطمئن قلبك و تقر عينك بعبادة ربك و تتسلى بها عن أذيتهم فيخف حينئذ عليك الصبر كَمَا قَالَ{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضُّحَى: 5]

*البخارى 6549-عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ:- يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ:لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَ سَعْدَيْكَ فَيَقُولُ:هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ:-
وَ مَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَ قَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ
قَالُوا: يَا رَبِّ وَ أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ:-أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ١٣٠

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ)معجا

(إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ)و لا تكرر النظر مستحسنا إلى أحوال الدنيا و الممتعين بها من المآكل و المشارب اللذيذة و الملابس الفاخرة و البيوت المزخرفة و النساء المجملة

(أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ)هؤلاء المشركين و أمثالهم_الأغنياء فَقَدْ آتَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِمَّا آتَاهُمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-

{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ87 لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ[الحِجْرِ]

وَ كَذَلِكَ مَا ادَّخَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَمْرٌ عَظِيمٌ لَا يُحَدّ وَ لَا يُوصَفُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضُّحَى: 5] وَ لِهَذَا قَالَ: {وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}

*فإن ذلك كله (زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)تبتهج بها نفوس المغترين و تأخذ إعجابا بأبصار المعرضين و يتمتع بها – بقطع النظر عن الآخرة – القوم الظالمون ثم تذهب سريعا و تمضي جميعا و تقتل محبيها و عشاقها فيندمون حيث لا تنفع الندامة و يعلمون ما هم عليه إذا قدموا فى القيامة

(لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ)و إنما جعلها الله فتنة و اختبارا ليعلم من يقف عندها و يغتر بها و من هو أحسن عملا كما قال:–

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً* وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا)

(وَرِزۡقُ رَبِّكَ)العاجل من:–العلم و الإيمان و حقائق الأعمال الصالحة

و الآجل مـن:–النعيم المقيم و العيش السليم في جوار الرب الرحيم

(خَيۡرٞ)مما متعنا به أزواجا فى ذاته و صفاته

(وَأَبۡقَىٰ)لكونه لا ينقطع أكلها دائم و ظلها كما قال تعالى(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

و فى هذه الآية إشارة إلي:–أن العبد إذا رأى من نفسه طموحا إلى زينة الدنيا و إقبالا عليها :–

1-أن يذكِّرها ما أمامها من رزق ربه
2-و أن يوازن بين هذا و هذا
*البخارى 2468-قال عمر ﵁ (لما دخل على النبى ﷺ)....فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهُ فِرَاشٌ قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ مُتَّكِئٌ عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ......فقال عمر﵁:-ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ فَإِنَّ فَارِسَ وَ الرُّومَ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ وَ أُعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ
وَ كَانَ النبي ﷺ مُتَّكِئًا فَقَالَ:-
«أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا»
*البخارى 2842 -عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﵁:-أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَامَ عَلَى المِنْبَرِ فَقَالَ:
«إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِى مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ(خيرات)الأَرْضِ»
ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا(متاعها وما فيها من نعم)فَبَدَأَ بِإِحْدَاهُمَا(بدأ بذكر بركات الأرض)وَ ثَنَّى بِالأُخْرَى(ذكر زهرة الدنيا بعد البركات)
فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ:-يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَ يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ(أو تصير النعمة عقوبة)؟
فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ قُلْنَا:-يُوحَى إِلَيْهِ وَ سَكَتَ النَّاسُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرَ(صار كل واحد منهم كمن على رأسه طائر يريد أخذه فلا يتحرك كيلا يطير)ثُمَّ إِنَّهُ مَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ الرُّحَضَاءَ(العرق الذى سال منه عند نزول الوحى عليه)فَقَالَ:
«أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا أَوَ خَيْرٌ هُوَ(أى المال)-ثَلاَثًا-إِنَّ الخَيْرَ (الحقيقى)لاَ يَأْتِي إِلَّا بِالخَيْرِ
وَ إِنَّهُ كُلَّمَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا(هو انتفاخ فى البطن من داء يصيب الآكل من كثرة الأكل)
أَوْ يُلِمُّ (يقرب أن يقتل)إِلَّا آكِلَةَ الخَضِرِ(الدابة التى تأكل الخضر فقط) كُلَّمَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ فَثَلَطَتْ(ألقت بعرها رقيقا أي مائعا)وَ بَالَتْ ثُمَّ رَتَعَتْ وَ إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَ نِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ لِمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ فَجَعَلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اليَتَامَى وَ المَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ كَالْآكِلِ الَّذِى لاَ يَشْبَعُ وَ يَكُونُ عَلَيْهِ شَهِيدًا يَوْمَ القِيَامَةِ»﴿١٣١﴾

(وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ)حث أهلك على الصلاة و أزعجهم إليها من فرض و نفل
و الأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به فيكون أمرا بتعليمهم ما يصلح الصلاة و يفسدها و يكملها.

(وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ)أى: على الصلاة بإقامتها بحدودها و أركانها و آدابها و خشوعها
فإن ذلك مشق على النفس و لكن ينبغى إكراهها و جهادها على ذلك و الصبر معها دائما
فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به كان لما سواها من دينه أحفظ و أقوم
*و إذا ضيعها كان لما سواها أضيع
*اسْتَنْقِذْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَ اصْطَبِرْ أَنْتَ عَلَى فِعْلِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى:-
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا}[التَّحْرِيم: 6]
*مختصر قيام الليل و قيام رمضان و كتاب الوتر( )
عن حُسَيْنِ بْنَ عَلِيٍّ ﵁أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﵁أَخْبَرَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَ فَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ ﷺلَيْلَةً فَقَالَ: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا

المؤلف: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (المتوفى: 294هـ)اختصرها: العلامة أحمد بن على المقريزى

فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ وَ لَمْ يُرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَ هُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَ يَقُولُ:
{وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [الكهف: 54] وَ عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بَلَغَنَا:-

«أَنَّ دَاوُدَ ﷺ جَزَّأَ عَلَى أَهْلِ بُيُوتِهِ الصَّلَاةَ فَلَمْ تَكُنْ تَأْتِي سَاعَةٌ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا وَ إِنْسَانٌ مِنْ آلِ دَاوُدَ قَائِمٌ يُصَلِّي». وَعَنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَمَّا نَزَلَتْ: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا}

قَالَ دَاوُدُ ﷺ لِسُلَيْمَانَ ﷺ:-إِنَّ اللَّهَ قَدْ ذَكَرَ الشُّكْرَ فَاكْفِنِي قِيَامَ النَّهَارِ وَ أَكْفِيكَ قِيَامَ اللَّيْلِ قَالَ:- لَا أَسْتَطِيعُ قَالَ: فَاكْفِنِي إِلَى صَلَاةِ الظُّهْرِ فَكَفَاهُ ".

وَ عَنِ ابْنِ شُبْرُمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ:- لَمَّا نَزَلَتِ:-{اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا}اعْتَقَبُوا اللَّيْلَ فَكُنْتَ لَا تَرَى مِنْهُمْ إِلَّا مُصَلِّيًا "
وَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ:-
كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أَيْقَظَ أَهْلَهُ لِلصَّلَاةِ يَقُولُ لَهُمْ:الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ:-

{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: 132]

وَ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ﷺ حُصِرَ حَصْرًا شَدِيدًا وَ تَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ حَتَّى اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى عُمَرَ ﷺ فَرُبَّمَا لَمْ يُقِلْ فَنَقُولُ: لَا يَقُومُ اللَّيْلَةَ كَمَا كَانَ يَقُومُ فَيَكُونُ أَبْكَرَ مَا يَكُونُ قِيَامًا فَكَانَ إِذَا انْصَرَفَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةِ:-

{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ} [طه: 132]

" قَالَ أَسْلَمُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكُنْتُ أَتَيْتُ عِنْدَ عُمَرَ ﷺ أَنَا وَ يَرْفَأُ(غلام عمر ﷺ) فَيَقُولُ:
«قُومَا فَصَلِّيَا فَوَاللَّهِ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُصَلِّيَ وَ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرْقُدَ وَ إِنِّي لَأَفْتَتِحُ السُّورَةَ فَمَا أَدْرِي فِي أَوَّلِهَا أَوْ فِي آخِرِهَا مِنْ هَمِّي بِالنَّاسِ»

(لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا)يَعْنِي إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ أَتَاكَ الرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا 2وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطَّلَاق] وَ قَالَ تَعَالَى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ56 مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ57 إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}[الذَّارِيَات]وَ لِهَذَا قَالَ:-
{لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ}وَ قَالَ الثَّوْرِيُّ:{لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا}أَيْ:لَا نُكَلِّفُكَ الطَّلَبَ.

*ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق و أن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه فقال:—

(نَحْنُ نَرْزُقُكَ)أي: رزقك علينا قد تكفلنا به كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم فكيف بمن قام بأمرنا و اشتغل بذكرنا؟!

و رزق الله عام للمتقي و غيره فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية و هو:—التقوى و لهذا قال:—

(وَالْعَاقِبَةُ)في الدنيا و الآخرة(لِلتَّقْوَىٰ)التي هي فعل المأمور و ترك المنهي فمن قام بها كان له العاقبة كما قال تعالى(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)(١٣٢)

معاناة وآية

كنتُ ولا زلتُ أعاني نوعًا من المشقة في إيقاظ أبنائي على اختلاف أعمارهم
لأداء صلاة الفجر في المسجد، ويتسرَّب إليَّ الضجر والملل في أحايين كثيرة فكُنت
لا أنفكُّ أقرأ بصوت مسموع قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[٢] طه: ١٣٢
فأشعر بقوة تساندني، وأستشعر أنني الآن مستجيبة لأمر الله تعالى الذي طلبه مني
في الآية، فأجالد نفسي على الصبر حتى أنال أجر الصابرين، كما قال تعالى:
﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الزمر: ١٠

(وَقَالُواْ)أى:–قال المكذبون للرسول ﷺ:

(لَوْلَا)هلا(يَأْتِينَا)محمدﷺ(بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ)؟يعنون آيات الاقتراح كقولهم:–
(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً)

و هذا تعنت منهم و عناد و ظلم فإنهم هم و الرسول بشر عبيد لله فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم
و إنما الذي ينزلها و يختار منها ما يختار بحسب حكمته هو الله و لأن قولهم(لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ)
يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه و لا بينة على حقه و هذا كذب و افتراء
فإنه أتى من المعجزات الباهرات و الآيات القاهرات ما يحصل ببعضه المقصود
و لهذا قال(أَوَلَمْ تَأْتِهِم)إن كانوا صادقين في قولهم و أنهم يطلبون الحق بدليله
(بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ)أى هذا القرآن العظيم المصدق لما فى الصحف الأولى من التوراة و الإنجيل
و الكتب السابقة المطابق لها المخبر بما أخبرت به و تصديقه أيضا مذكور فيها و مبشر بالرسول بها
و هذا كقوله تعالى(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)
فالآيات تنفع المؤمنين و يزداد بها إيمانهم و إيقانهم و أما المعرضون عنها المعارضون لها فلا يؤمنون بها و لا ينتفعون بها(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ)

*الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ الَّذِى أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ اللَّهُ وَ هُوَ أُمِّىٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَوَ لَمْ يُدَارِسْ أَهْلَ الْكِتَابِ وَ قَدْ جَاءَ فِيهِ أَخْبَارُ الْأَوَّلِينَ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ بِمَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ الصَّحِيحَةُ مِنْهَا فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُهَيْمِنٌ عَلَيْهَا يُصَدِّقُ الصَّحِيحَ و يُبَيِّن خَطَأَ الْمَكْذُوبِ فِيهَا وَ عَلَيْهَا.
وَ هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ "الْعَنْكَبُوتِ"-{وَقَالُوا لَوْلَا أُنزلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ 50 أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[العَنْكَبُوتِ]
*البخارى4981 -عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:-قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ(أجرى على يديه من المعجزات الشىء الذى يقتضى إيمان من شاهدها بصدق دعواه لأنها من خوارق العادات حسب زمانه ومكانه)وَ إِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ(المعجزة التى أعطيتها)وَحْيًا(قرآنا موحى به من الله تعالى يبقى إعجازه على مر الأزمان ولذلك يكثر المؤمنون به ويوم القيامة يكون أتباعه العاملون بشريعته المنزلة أكثر من الأتباع العاملين بالشرع الحق لكل نبى)

أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»

*وَ إِنَّمَا ذَكَرَ هَاهُنَا أَعْظَمَ الْآيَاتِ الَّتِي أُعْطِيَهَا ﷺ وَ هُوَ الْقُرْآنُ وَ لَهُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ مَا لَا يُحَدُّ وَ لَا يُحْصَرُ كَمَا هُوَ مُودَعٌ فِي كُتُبِهِ وَ مُقَرَّرٌ فِي مَوَاضِعِهِ(١٣٣)

(وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا)

و إنما الفائدة فى سوقها إليهم و مخاطبتهم بها لتقوم عليهم حجة الله(١٣٤)

و لئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب:-(لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ)

بالعقوبة فها قد جاءكم رسولي و معه آياتي و براهيني فإن كنتم كما تقولون فصدقوه.

*يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ مُتَعَنِّتُونَ مُعَانِدُونَ لَا يُؤْمِنُونَ {وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يُونُس: 97]

كَمَا قَالَ{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ155 أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ156 أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ} [الأَنْعَام]

وَ قَالَ: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا [فَاطِر: 42] وَ قَالَ:{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ109 وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأَنْعَام]

(قُلْ)يا محمد مخاطبا للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به ريب المنون(كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ)

فتربصوا بي الموت و أنا أتربص بكم العذاب(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)أى:-الظفر أو الشهادة

(وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا)

(فَتَرَبَّصُواْ)فانتظروا(فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ)المستقيم

(وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ)الى الحق و سبيل الرشد بسلوكه أنا أم أنتم؟

فإن صاحبه هو الفائز الراشد الناجى المفلح و من حاد عنه خاسر خائب معذب و قد علم أن الرسول هو الذى بهذه الحالة و أعداؤه بخلافه والله أعلم.

*وَ هَذَا كَقَوْلِهِ{وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفُرْقَان: 42] {سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ} [القَمَر: 26] (١٣٥)